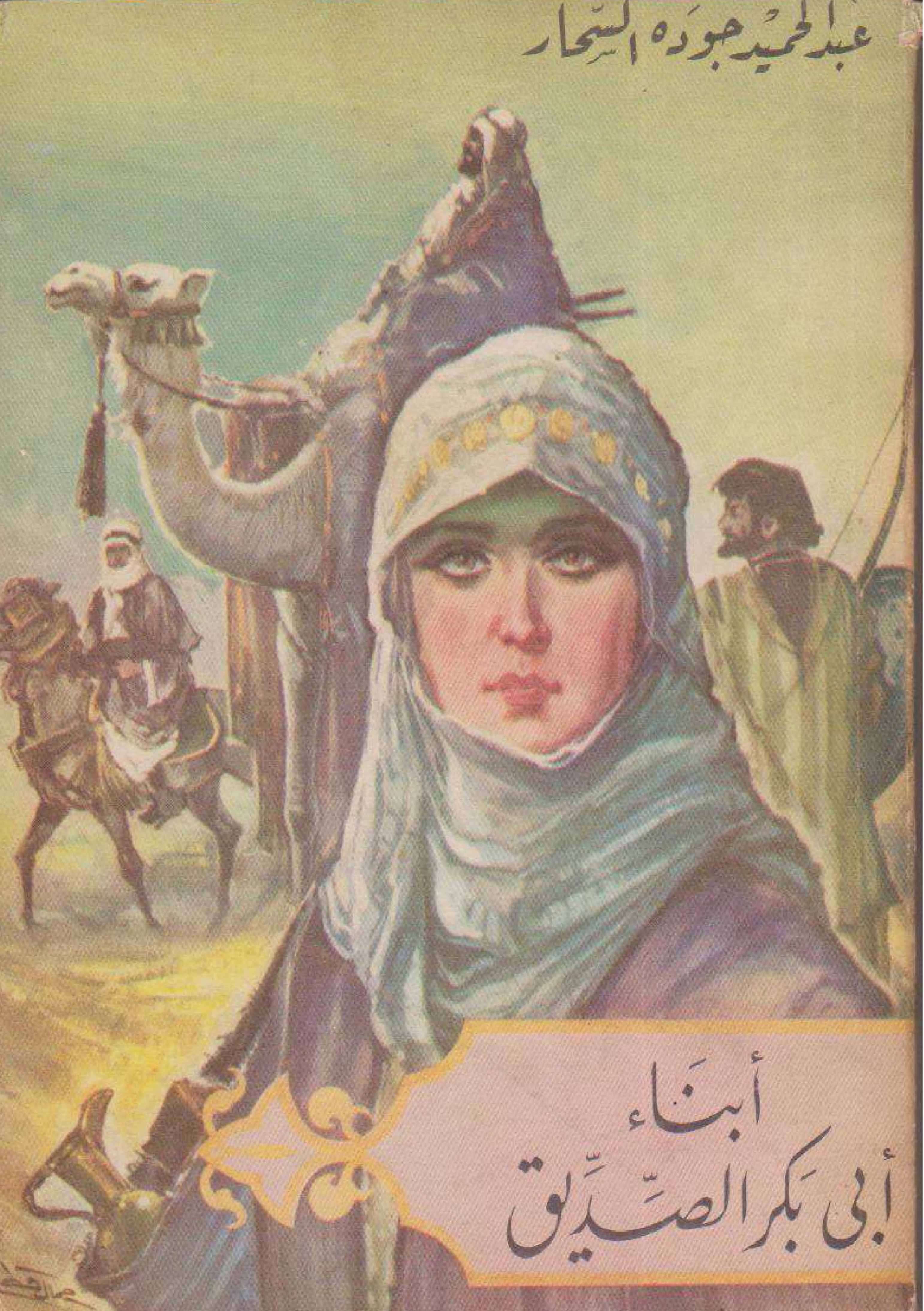

عبد الحميد جوده السحار
أبناء
أبي بكر الصديق

مطبوعات مكتبة مصر

أبناء أبي بكر الصدّيق

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه
٣٧ شارع كامل صدقي - الفجالة
ت ٩٠٥١٤٧ - ٩٠٧٥٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

خفقة قلب

لم يستيقظ النهار بعد ، كان مسبلا جفنه على عينه المبصرة ، فكان ضياؤها محجوبا عن الكون ، وعلى الرغم من ذلك فقد هب أهل مكة من نومهم ، وخرجوا زرافات يضربون فى عماية الصبح صوب الكعبة ، ليطوفوا بها وليودعوا الأحبة الخارجين فى تجارتهم الى الشام ، وانطلق القوم الى الأصنام المنصوبة فى جوف الكعبة وأخذوا يتمسحون بها ، يلتمسون عونها ويطمعون فيما عندها ، ويرجون خيرها .

ودلف شاب وسيم ، فى العقد الثانى من عمره ، من باب من أبواب الحرم ، وانطلق الى هبل ، وأخذ يبتهل اليه فى حرارة ، ويسأله التوفيق فى خشوع ، حتى اذا ما اطمأن الى دعائه ، والى أن هبل العظيم سيرعاه فى سفره ، خرج لينضم الى رفقائه الذين سيصاحبونه فى رحلته التى يرجو أن يحالفه التوفيق فيها . سار الفتى مرفوع الرأس ، مطمئن النفس ، فى وجهه الرضا ، وفى عينيه الأمل الحلو ، وعلى شفتيه ابتسامة عذبة . انه ليرى الدنيا مقبلة ، وانه لبها جد شغوف ، فما رأى الا جمالها ، وما أحس الا

جنانها . وما ذاق الا عذب نميرها . انه ابن سيد من سادات قريش . رزق بسطة فى العيش . فتجارتهم واسعة . ومالهم ممدود . وانه ليتأهب للخروج الى الشام فى تجارة ابيه . وانه ليحس شوقا لرؤيتها . فلطالما سمع من ابيه وصحبه عن جنانها الزاهرة . وأنهارها المتفجرة . وأسواقها العامرة . وقصورها الشامخة .

وبلغ قافلته فاقبل الجميع يسلمون عليه . واخذ يمزح مع القوم . فجلجلت ضحكته حرة طليقة . واستمر فى دعابته . فقد كان فتى فيه رقة ودعابة . حتى أذن بالرحيل . فانطلق الفتى عبد الرحمن بن أبى بكر الى الشام وهو يرجو خيرا كثيرا .

استمرت القافلة فى سفرها ثم نزلت منزلا . فنصب القوم حجرا وأخذوا يطوفون به . وراح عبد الرحمن يطوف فى خشوع . ثم ذبح عنده ووزع ما ذبح على رفاقه تقربا وزلفى . واستأنفت القافلة فى سفرها . واستأنف عبد الرحمن مرحه . وراح يتنقل بين القوم كفراشة طليقة تتنقل من زهرة الى زهرة . واخيرا حطت القافلة رحالها فى أسواق الشام . وأخذ الناس فى البيع والشراء . حتى نفد ما كان فى قافلة عبد الرحمن وربح ربحا وفيرا .

نفقت تجارة عبد الرحمن فرأى ان يجوس خلال الديار . يشاهد جمالها . ويزور آثارها . فراح يضرب فى طرقاتها حتى بلغ قصرا فخما . راعته عظمته . واعجبته بنايته . فراح يتطلع اليه . ويدور حوله . وقد كان القصر للجودى ملك الشام . وبينا كان عبد الرحمن يلف حول القصر . اذ وقع بصره على فتاة ملاحة حلوة . ذات حسن باهر . وجمال قاهر . وكانت على طنفسة لها وحولها ولائدها . فكأنما كانت قمرا تحف به النجوم . وزهرة تفتحت

وحولها الاكمام ، فخفق قلبه ، وسلب لبه ، ووقف ماخوذا يتجلى ذلك الحسن ، ويتمتع بالتطلع الى الجمال الفتان · وانقضى الوقت وما احس عبد الرحمن مروره ، بل بقي كالمسحور حتى قامت عن طنفستها ودخلت ، فعاد الى نفسه ، وانصرف وهو مطرق يفكر فى ذات الحسن و الجمال ·

انقضى الليل ولم يذق عبد الرحمن كثير غمض ، فقد كانت الفتاة تتماثل له وتحتل فكره ، وقد سره ان يقضى الليل يفكر فيها ، وما ان طلع النهار حتي خرج عبد الرحمن قاصدا قصر الجودى ، واخذ يلف حوله لعله يلمح ليلى فتكتحل برؤيتها عيناه ، وكان كلما لمح شبحا فى القصر اضطرب نفسه ، وخفق قلبه ، وانقضى الوقت ثقيلا ، فما راى ليلى ، وما اطمان فؤاده ، واخيرا لمحها تخرج الى حديقة القصر وخلفها ولائدها ، فأحس قلبه فى صدره كجناح خافق ، وراح يديم النظر اليها هيمان نشوان ·

شعر عبد الرحمن بالسعادة تملأ نفسه ، ودامت سعادته ما دامت ليلى أمام عينيه ، ولكنه احس انقباضا عقب انصرافها ، انه ليتوق اليها ، وانه ليتمنى وصالها ، ولكن هل من سبيل الى الوصال ؟ انها ابنة ملك الشام ، وانه مهما يلغ ابن سيد من سادات قريش ، وما قريش فى نظر الملك العظيم الا حفنة من التجار ، فما بال قلبه يتعلق بالمحال ويتوق الى السماء ·

واستمر عبد الرحمن يتجه الى قصر الجودى كل يوم ، يشاهد ليلى على البعد ، حتى اذا ما حان أوان العودة الى مكة ، انطلق مشغول الفؤاد ، وراح يفكر طوال الطريق فيمن سلبته قلبه · وأخذ

• الناس يتساءلون عما دهى الفتى المرح . وما أصابه فلم يدر أحد ما به . حتى ألحت عليه الذكرى فقال :

تذكرت ليلى والسماوة دونها فمال ابنة الجودى ليلى وما ليا

فيا لعبد الرحمن ، لقد خرج من مكة خلى البال ، وعاد اليها أسير الهوى والغرام . ويا ليتــه أحب من يســتطيع أن يطمع فى نوالها ، ولكنه أحب المحال ، فمال ليلى وما له ، ترى أرآها لتزلزل كيانه ، وتنغص عيشه ، وتبدل هناءه ، أم رآها لحكمة لا يراها ، فمن يدرى فقد يجود الزمن بالوصال .

الفصل الثانى

مصـــــاهرة

انطلق بعد ان اعرض الناس عنه فى كل مكان الى منزل قبيلة من القبائل المنتشرة فى أطراف مكة ، فبلغه بعد أن نال منه الجهد ، وبان عليه الاعياء ، ووقف يلتقط انفـاسه حتى اذا ما هـدا قليلا هتف : « يا بنى فلان » فخرج الناس ليروا ما هناك ، فرأوا محمد ابن عبد الله ، فتطلعوا اليه فقـال لهم : « انى رســول الله اليكم يأمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، وان تخلعوا من دونه من هذه الأنداد ، وان تؤمنوا بى ، وتصدقونى وتمنعونى حتى أبين ما بعثنى به » . وما ان فرغ من قوله وما دعا اليه ، حتى ظهر خلفه عمه أبو لهب ، احول له غديرتان ، عليه حلة عدنية ، وقال : « ان هذا انما يدعوكم الى ان تسلخوا اللات والعـزى من اعناقكم الى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا له » . فلما سمع القوم مقالته نظروا الى النبى شذرا ، ثم جعلوا يعودون من حيث اتوا ، وتركوا رســول الله وحده باسر الوجه ، مطاطىء البصر . وانقضت برهة ثم رفع عينيه فألفى عمـه مشرق الوجه ، ضاحك السن ، فانصرف حزينا وأبو لهب فى اثره ليغض الناس من حوله ، وليحرضـهم على ابن أخيه الذى جاءهم ببـدعة لا لهم ولا لآبائهم بها علم .

وانقضى اليوم فى كفاح مرير ، وبلغ الجهد برسول الله غايته .

فانطلق الى داره مطاطىء الرأس ، كسير القلب ، واستمر فى سيره حتى بلغ الدار ، فلم يحس تلك الراحة التى كان يحسها فى الأيام الخوالى كلما بلغها ، فلقد صارت الدار موحشة بعد ان افتقدت من خديجة الوفية الحنون التى كان يسكن اليها فتمسح حزنه ، وتخفف من ألمه ، وتسرى عنه ، وتشد من أزره .

وقام فى هجعة الليل يصلى لربه ، يسأله عونه ، ويناشده وعده ، حتى اذا ما هدأت نفسه اتجه الى فراشه فنام ، فرأى فيما يرى النائم رجلا يحمل امرأة فى سرقة حرير ثم يضعها ويلتفت اليه ويقول : « هذه امرأتك » فيقوم اليها ويكشفها ، فاذا هى عائشة بنت احب الناس اليه .

وتنفس الصبح ، فانطلق الى بيت الصديق كما اعتاد أن ينطلق كل يوم ، ثم خرج وصاحبه يضربان فى مكة حتى تصرم النهار كما تصرم سابقه فى كفاح ، وعاد مع الليل الى داره ، وقام يصلى لربه ، يسأله عونه ، ثم اندس فى فراشه ونام ، فرأى رجلا يحمل امرأة فى سرقة حرير ، ثم يضعها ويقول : « هذه امرأتك » فيكشفها فاذا هى عائشة ، فيقول : « ان يكن هذا من عند الله يمضه » .

وفى يوم من الأيام أقبلت خولة بنت حكيم الى رسول الله وقالت :

- أى رسول الله الا تزوج ؟

- ومن ؟

- ان شئت بكرا ، وان شئت ثيبا .

- فمن البكر ؟

- ابنة أحب الناس اليك ، عائشة بنت ابى بكر .

ـ ومن الثيب ؟

ـ سودة بنت زمعة .

ـ فاذهبى فاذكريهما .

وخرجت بنت حكيم من عند رسـول الله ، وانطلقت الى دار الصديق فرحة . وراحت تغذ فى السير حتى دخلت على ام رومان ام عائشة . فلما جلست قالت : وقد بان البشر فى محياها :

ـ اى ام رومان . ماذا ادخل الله عليكم من الخير والبركة ؟ !

ـ وما ذاك ؟

ـ أرسلنى رسول الله . اخطب عليه عائشة .

ـ وددت . انتظرى ابا بكر فانه آت .

وانتظـرت بنت حكيم : وكانت تتطلع الى البـاب بين وقت وآخر ترقب دخول الصـديق . حتى اذا ما اقبـل أسرعت اليه وقالت :

ـ يا ابا بكر . ماذا ادخل الله عليك من الخير والبركة ، أرسلنى رسول الله أخطب عليه عائشة .

فنظر ابو بكر اليها فى عجب وقال :

ـ وهل تصلح له ؟ ! انما هى ابنة اخيه .

فلم تدر بنت حكيم ما تقول ، وقامت وقد ساءها أن تخفق فى سفارتها لتزويج خير البشر . ورجعت الى النبى - وأنبأته بالخبر فقال لها :

ـ ارجعى اليه فقولى له : أنت اخى فى الاسلام وأنا اخوك ، وابنتك تصلح لى .

فلما بلغ صوت النبى سمعها برقت أساريرها ، وعاد اليها بشرها ، ونهضت خفيفة قاصدة دار الصديق .

جلست بنت حكيم ، وأبو بكر مطرق يفكر ، وأم رومان تنظر اليه . ثم قطعت بنت حكيم حبل السكون فقالت :

ــ ايه يا أبا بكر . ما تقول ؟

فنهض وقد بان فى وجهه العزم . وقال وهو يتجه صوب الباب :

ــ انتظرينى حتى أرجع .

وخرج ابو بكر تاركا أم رومان ، وبنت حكيم ينتظرانه . وقالت بنت حكيم :

ــ أين ذهب ؟

ــ ان المطعم بن عدى قد ذكرها على ابنه ، ولا والله ما وعد شيئا قط فأخلف .

ولم يشأ ابو بكر ان يقبل زواج ابنته من أحب الناس اليه دون ان يرجع الى من ذكروا ابنته على ابنهم ، فما كان ممن ينكثون بعهودهم . فانطلق الى دار المطعم واستأذن فى الدخول ، فأذن له فوجد المطعم وعنده امرأته فقال :

ــ جئت أسألكم عن زواج ابنكم من عائشة .

فأطرق المطعم قليلا . وقالت زوجه العجوز معتذرة :

ــ يا بن أبى قحافة ، لعلنا ان زوجنا ابننا من بنتك ان تصبئه وتدخله فى دينك .

وشاء أن يسمع رأى المطعم فأقبل عليه وقال :

ــ ما تقول هذه ؟

فقال المطعم دون أن يرفع بصره :

ـ انها تقول ذاك ٠

فخرج أبو بكر والغبطة تملأ نفسه ، فقد أذهب الله العدة التى كانت فى نفسه من عدته التى وعدها اياه ، وعاد الى داره فرحا . انه ليستطيع ان يزوج عائشة من رسول الله الآن ، ودخل الدار فلما وقع بصره على بنت حكيم قال لها :

ـ اى خولة . ادعى لى رسول الله ٠

فانطلقت خولة لتدعو رسول الله . ليعقد على عائشة بنت أحب الناس اليه ٠

الفصل الثالث

ذات النطاقين

جلست اسماء في دار ابيها ، لا تفعل شيئا ، فقد كان الوقت ظهرا ، واسبلت عينيها ، فرات بعين خيالها يوم اقبل الزبير بن العوام الى ابي‌بكرلخطبتها ، ثم رات يوم بنى بها واخذها الى داره ، ثم راته وهو يعود اليها وقد ضاق ذرعا باضطهاد القوم الفاسقين له ولاخوانه المسلمين ، وتذكرت ساعة الوداع قبل رحيله الى الحبشة . فغامت عيناها للذكرى الأليمة ، ولكن ما لبثت ان اشرقت اساريرها لما فكرت في عودته اليها سالما ، وبقائه بجوارها مدة حتى اذا ما بدات الهجرة الى يثرب ، هاجر اليها مع من هاجر ، تاركا البلد الظالم أهله ، واستمرت اسماء في رفقة لكرها حتى اقبلت عائشة ، فأخذت الأختان باطراف الحديث ، وجاء ابو بكر وجلس على سريره ، وكان الوقت ظهرا والحر شديدا ، وما انقضت برهة حتى دخل غلام وقال لأبي بكر :

ـ هذا رسول الله متقنعا .

فقام ابو بكر عن سريره وقال :

ـ والله ما جاء به هذه الساعة الا امر .

وجاء رسول الله فاستأذن فأذن له فدخل ، ولما وقع بصره على ابي بكر قال له :

ـ اخرج من عندك .

ـ انما هم اهلك . بأبى أنت يا رسول الله .

ـ ان الله عز وجل قد أذن لى بالخروج والهجرة .

ـ الصحبة يا رسول الله .

ـ الصحبة .

فبان البشر في وجه أبى بكر ، ولم يتمالك نفسه ، فطفرت دموع الفرح من عينيه . فلطالما التمس من النبى الاذن بالخروج ، ولطالما حبسه النبى قائلا :

« انظرنى فانى لا أدرى لعلى يؤذن لى بالخروج » فيا لفرحه ، انه سيخرج فى رفقة النبى الحبيب ، وأسرع الى كوة فى البيت كان يضع ماله فيها ، فاحتمله كله ، ورجع الى حيث كان النبى فالتقى عبد الله ابنه قد عاد الى الدار فالتفت اليه وقال :

ـ أى عبد الله ، سنرحل الساعة ، فاستمع لنا ما يقول الناس فينا نهارا ثم ائتنا اذا امسى بما يكون فى ذلك اليوم من خبر .

وخرج النبى وأبو بكر من خوخة فى ظهر الدار ، وانطلقا فى رعاية الله ، وراحت أسماء وعائشة وعبد الله يرقبونهما حتى غابا عن عيونهم .

★ ★ ★

علم الملأ من قريش أن النبى وابا بكر قد خرجا من مكة ، فحنق القوم وغضبوا ، وساءهم انفلات النبى منهم فى اليوم الذى عزموا فيه على قتله والتخلص منه ، وراحوا يتقبون عنه فى كل مكان ، ويتعقبونه لعلهم يعثرون له على أثر ، وأتى نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام عدو النبى الاول ، ووقفوا على باب ابى بكر ، فخرجت اليهم أسماء وقالت :

ـ ما تريدون ؟

ـ أين ابوك يا بنة ابى بكر ؟

ـ لا ادرى والله أين ابى ·

فظهر الحنق فى وجه ابى جهل ، ورفع يده ولطم خدها لطمة طرح منها قرطها ، فنظرت اليه نظرة أودعتها كل احتقارها ، وغالبت دموعها التى كادت ان تجرى على خديها حتى لا يتشفى فيها عدو الله وعدوهم · وانصرف القوم ، ودخلت اسماء ، وجلست بجوار عائشة ، ثم اقبل جدهما ابو قحافة وقد ذهب بصره ، فاجلسته على سرير ابيها وما كاد يستقر حتى قال :

ـ والله انى لأراه قد فجعكم بماله فى نفسه ·

فقالت اسماء :

ـ كلا يا أبة · انه ترك لنا خيرا كثيرا ·

وانسلت اسماء من مكانها ، وأخذت احجارا فوضعتها فى الكوة التى كان ابوها يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم عادت الى حيث كان جدها ، وأخذت بيده وانطلقت به حتى بلغا الكوة فقالت :

ـ يا ابة · ضع يدك على هذا المال ·

فوضع يده على الحجارة ، ثم قال :

ـ لا بأس اذ كان قد ترك لكم هذا فقد احسن ، وفى هذا بلاغ لكم ·

وانصرف ابو قحافة وهو يحسب أن ابنه قد ترك لابنائه خيرا كثيرا ·

اندس عبد الله بين القوم وقد ارهف السمع ، يسمع كل ما

يقولون . ويعي كل ما يدبرون حتى اذا ما أمسى المساء انطلق الى غار ثور . وهو يتلفت حوله خشية أن يتبعه عين من عيون القوم ، فيعثر على مكان اختباء النبي وأبي بكر . وبلغ عبد الله الغار فدخل فالفاهما جالسين ، فجلس وراح يقص عليهما نبأ القوم ويخبرهما انهم قد جعلوا مائة ناقة لمن يرد عليهم النبي . واستمر عبد الله في حديثه حتى سمع صوت حفيف ثوب عند باب الغار فتطلعوا جميعا ، فالفوا اسماء قد اقبلت بما يصلحهم من الطعام . ثم وضعته وانصرفت حذرة . وقدم عامر بن فهيرة مولى ابي بكر وترك الغنم بالقرب من الغار . فكان النبي وابو بكر يحتلبان . ونام عبد الله ليلته معهما في الغار حتى اذا ما تنفس الصبح انطلق ليصبح مع قريش بمكة كبائت . واتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفي عليه .

وانقضت ثلاثة ايام على هذه الحال . فسكن عن النبي وأبي بكر الناس . وخرجت اسماء بسفرتهما حتى بلغت الغار فوجدت صاحبيها الذي استأجرا ببعيرهما ينتظر . فاسرعت لتعلق السفرة بالبعير . ولكنها لم تجد لها عصاما . فالتفتت الى أبيها وقالت :

ـ لا اجد شيئا اربطه الا نطاقي .

ـ فشقيه .

فشقت نطاقها وربطت السفرة . وقرب ابو بكر الى رسول الله افضل الراحلتين ثم قال له :

ـ اركب . فداك ابي وأمي .

ـ اني لا أركب بعيرا ليس لي .

ـ فهو لك يا رسول الله .

ـ لا . ولكن ما الثمن الذى ابتعتها به ؟

ـ كذا وكذا .

ـ قد اخذتها بذلك .

ـ هي لك يا رسول الله .

وركب النبى راحلته ، وركب ابو بكر واردف عامر بن فهيرة خلفه . وانطلق الركب الكريم الى يثرب . واسماء واقفة عند الغار تتطلع اليهم حتى اذا ما ابتلعهم الافق البعيد . عادت ذات النطاقين الى مكة .

الفصل الرابع

المولود الأول

استقبلت يثرب رسول الله وصديقه الوفي استقبالا رائعا ٠ وقد هز الفرح قلوب المسلمين جميعا . فقد قدم الرسول الأمين ليمكث بينهم . فيلم شملهم ، ويدبر أمرهم ، ويعلى من شأنهم ، وبين هذه القلوب السعيدة اندس قلب حاقد أكلته الغيرة ، وتركته يدمى مقتا وحقدا . وكان صاحب هذا القلب عبد الله بن أبي بن سلول ٠ فقد كان فرح القوم بمقدم الرسول يحزنه ، وكان انبساط أساريرهم يقبضه . انه ليمقت محمدا ، وانه ليمقت ذلك اليوم الذى وفد فيه الى يثرب ، فان وفوده حرمه الملك ، وسلبه السلطان . لقد عزم قومه الأوس والخزرج على ان يضعوا تاج يثرب على رأسه ، وان يجلسوه على عرشهم ، ولكن ما ان ظهر النبى حتى ذاب التاج ، وتقوض العرش قبل ان يتربع فيه . وتحولت الأنظار عنه بعد أن كان قبلة الانظار . لقد سلبه النبى كل شيء : سلبه الملك ، وسلبه الحب ، حب الناس له ، وحب السيطرة على الناس ، فلم يبق فى مستودع نفسه الا البغض ، فكره النبى أشد الكره ، ود أن يجهر بمقته لينفس عن صدره ما يجيش به من حقد . ولكنه وجد القلوب ملتفة بالنبى ، نابضة بحبه . فكبح شهوة نفسه وهو كاره ، وراح يتربص بغريمه الذى حرمه الملك الدوائر ، وتقنع بقناع الصداقة لعله ينال عن طريقه ما لا ينال العدو السافر ٠

ـ واستقر المهاجرون بيثرب ، وطابت لهم الحياة ، فقد انقضت ايام الاضطهاد ، واقبلت ايام القوة والعز والسلطان ، فبعث النبى لحمل بناته وزوجته سودة بنت زمعة من مكة الى يثرب ، والتمس ابو بكر من عبد الله بن اريقط ، الذى كان دليلهم فى هجرتهم ، أن يخبر عبد الله ابنه بمكانه اذا ما عاد الى مكة ، فلما عاد قابل عبد الله بن أبى بكر فى اسواقها وانباه أن أباه قد نزل بالسنح بالقرب من يثرب ، فانطلق عبد الله الى الدار وطلب من اسماء وعائشة وام رومان ان يتجهزن للخروج ، وقابل طلحة بن عبيد الله فانباه بعزمهم ، فعرض طلحة عليه صحبتهم ، وفى سكون الليل خرجت رواحل من مكة تحمل عيال ابى بكر قاصدة يثرب ، مدينة الرسول .

نزلت عائشة خطيبة النبى فى دار ابيها بالسنح ، لقد كانت طفلة يوم عقد عليها النبى ، ولكنها اليوم حلوة رقيقة نامية ، ذات ولع باللعب والمرح ، فخرجت الى فناء الدار تلعب ، واقبل الرسول الى دار ابى بكر فاجتمع اليه رجال من الأنصار ونساء ، وذهبت أم رومان تبحث عن عائشة فجاءتها وهى فى أرجوحة بين عرقين يرجح بها ، فانزلتها ثم مسحت وجهها بشىء من ماء ، ثم اقبلت تقودها حتى اذا كانتا عند الباب وقفت بها ليهدأ روعها ، ثم دخلتا فرأت عائشة رسول الله جالسا على سرير ، وعنده رجال من الانصار ، فاخذتها أم رومان واجلستها فى حجر النبى وهى تقول :

ـ هؤلاء اهلك ، فبارك الله لك فيهن ، وبارك لهن فيك .

فهب القوم وخرجوا ، وهكذا بنى رسول الله بعائشة ، فما نحرت جذور ، ولا ذبحت شاة .

وحمل المهاجرون نساءهم من مكة الى المدينة . وصاهروا الانصار . وانقضت شهور لم يولد لهم فيها . فزعم اليهود أنهم سحروهم فلا يولد لهم . فلم يلتفت المسلمون لهذا القول بل سخروا منه . ولكن انقضت شهور أخرى ولم تسمع يثرب صراخ مولود جديد . فتهامس نساء المسلمين . تهامس الرجال والنساء . ثم تحدث الرجال مع الرجال فاصبح حديث سحرهم حديث يثرب . وانقضت شهور أخرى لم يولد للمسلمين فيها . فحسبوا ان اليهود سحروهم حقا . وأصبح الزعم يقينا .

وفى يوم من الايام بينا كان رسول الله وأصحابه جالسين ، اقبل البشير من قباء الى يثرب يحمل البشرى للمسلمين . فلما دنا من النبى هتف :

– رزق الله الزبير بن العوام وأسماء بنت أبى بكر مولودا .

وما ان بلغ النبأ مسامع القوم حتى انعش القلوب . وانطلق الحناجر بالتكبير . وكان تكبيرهم ذلك فرحا وسرورا . فقد كذب الله اليهود فيما قالوا .

وقبلت أسماء تحمل فلذة كبدها . وتضمه اليها منشرحة الصدر . راضية النفس حتى اذا ما اتت رسول الله وضعت فى حجره . عيش النبى له . ثم دعا بتمرة فمضغها . ثم حنكه بها . ثم دعا له بالبركة وسماه عبد الله . ثم ناوله لاسماء فاحتضنته وانطلقت به . وهى ترجو له خيرا كثيرا .

الفصل الخامس

غـــيرة

نزل ابو بكر بالسنح من ضواحي المدينة على خارجة بن زيد من بني الحارث من الخزرج ، فلما آخى النبي بين المهاجرين والانصار آخى بين ابي بكر وخارجة ، فأخذ ابو بكر يعمل في الزراعة معه مزارعة في ارضه ، فتوطدت عرى الصداقة بينهما وقويت روابط الالفة والمحبة . وفاتح أبو بكر خارجة في تزويجه ابنته فوافق ، وتزوج ابو بكر من حبيبة بنت خارجة وبقيت معه حتى قضى ، وولدت له ام كلثوم غب موته . ثم تزوج من اسماء بنت عميس لتلد له محمدا .

ونزل الزبير بن العوام بيثرب . وكان فقيرا . ماله في الارض من مال ولا مملوك ولا شيء غير جمله الذي يستقي عليه ، وغير فرسه ، فكانت زوجه أسماء تقوم بعلف فرسه ، فاذا ما فرغت منها خرجت تملأ الماء ثم تعود لتصلح دلوها الجلد أو لتعجن ، وما كانت أسماء لتحسن تخبز ، فكانت تستعين بجارات لها من الانصار ليخبزن لها وقد كن جارات صدق . فاذا ما انتهت اعمال البيت انطلقت الى أرض الزبير التي اقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي على ثلثي فرسخ من الدار ، لتعمل بها ، حتى اذا ما مالت الشمس للمغيب عادت الى دارها لتحتضن ابنها عبد الله .

وفي يوم من الايام حملت اسماء النوى من أرض زوجها على

راسها وانطلقت الى الدار . وفى الطريق قابلت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه نفر من الأنصار . ورأى النبى حملها فشاء أن يحملها على راحلته خلفه فهتف :

ـ أسماء .

ثم قال لبعيره : « اخ ... اخ » ليتبخ بعيره . ولكن أسماء لم تتقدم . فقد تذكرت شدة غيرة الزبير . فعرف رسول الله انما استحيت أن تسير مع الرجال . فمضى ولم يلتفت خلفه ، ومضت أسماء حتى بلغت الدار . ولما أقبل الزبير قالت له :

ـ لقينى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعلى رأسى النوى ، ومعه نفر من اصحابه . فأناخ لأركب فاستحييت منه . وعرفت غيرتك .

فأطرق الزبير قليلا ثم قال :

ـ والله لحملك النوى كان اشد على من ركوبك معه .

وبلغ ابا بكر ما تقاسيه ابنته من مشاق . وما تقوم به من أعمال . فبعث اليها بخادم تكفيها سياسة الفرس . ففرحت فرحا شديدا . فكأنما قد اعتقها ابوها .

★ ★ ★

وتزوج النبى من عائشة . فاحتلت مكان خديجة فى دار الرسول . واحبها النبى فنزلت من قلبه منزلة خديجة . ورأت فاطمة بنت رسول الله احتلال عائشة مكان امها . واعزاز النبى لها . فأحست نحوها بأشياء . ان فاطمة لتعلم مقدار حب أبيها لها . وان هذا الحب لما يشرح صدرها . ويدخل على نفسها الغبطة والسرور . ولقد كان سرورها صافيا أيام كانت امها تملأ دار ابيها

فما كان يشوبه شائبة من احاسيس تعكره . اما وقد اصبحت عائشة تشاطرها هذا الحب ، وتقاسمها قلب النبى العظيم ، فقد امتزج سرورها بغيرة . غيرة الابنة ممن اخذت مكان امها ، وغيرة الابنة ممن قاسمتها فى قلب أبيها وعطفه الكبير .

وبلغ فاطمة ان عائشة اعدت يوما طعاما ، وجلست وزوج النبى سودة بنت زمعة ورسول الله بينهما ، فقدمت لسودة شيئا من طعام اعدته ، ولكن سودة اعتذرت بانها لا تحبه ، فقالت لها عائشة وهى تضحك انها ستلطخ وجهها به ان لم تاكل منه فاعتذرت سودة ثانية ، فقامت عائشة ولطخت وجه سودة به وهى مغرقة فى الضحك ، فضحك النبى ولم يقل شيئا ، فساء فاطمة ذلك ، فما كانت تحسب ان يبلغ دلال عائشة على النبى هذا ، ولما كانت النساء محدثات الليل ، فان فاطمة حدثت عليا زوجها بكل هذا ، فانتقل ما فى نفسها الى صدر ابن ابى طالب ، فاصبح ينظر الى بنت الصديق بعين فاطمة ، ويحس نحوها باحساس زوجه .

ورات عائشة حب النبى لابنته ، وقيامه لها اذا حضرت ، واقباله عليها ، وشدة حبه لأبنائها وحدبه ، فكانت تحس غيرة ، وكان النبى يبش اذا ما راى الحسن او الحسين ، وكان كثيرا ما يسأل عنهما ويلاعبهما ويضاحكهما حتى اذا ما حاول أحد ان يبعد احدهما عنه كان يقول : دعوا لى ابنى ، فكانت عائشة تحس مرارة ولا ريب عندما تسمع هذا القول ، فان النبى يشتهى أن يكون له ولد ، ولكنها ما كانت بقادرة على أن تنجب له ما يتمنى ، فنبتت بذور الغيرة فى صدرها ، ولما لم تكن بقادرة على أن تتحدث عن فاطمة أمام النبى ، فانها حادثت ابا بكر عنها ولا شك ، وساءت

عائشة ان تتمثل بالنبى بأن تحتضن غلاماً وتدعوه ابنها كما يفعل بالحسن والحسين . فاحتضنت ابن اختها عبد الله وصارت تدعوه : ابنى . حتى كنيت بأم عبد الله .

★ ★ ★

ومر رسول الله مع الزبير بن العوام فى بنى غنم . فرأى رسول الله علياً على مقربة منه فضحك له . وضحك على بحبيبه . ورأى الزبير تهلل اسارير على . فأحس شيئاً فى صدره ترجم عنه بقوله :

ـ لا يدع ابن أبى طالب زهوه !

فقال رسول الله :

ـ انه ليس به زهو . ولتقاتلنه وأنت له ظالم .

وهكذا نبتت بذور الغيرة التى تنبت فى كل بيت . فى صدور أهل البيت . وستتعهدها الايام لتنمو وتشتد حتى تتحكم فى حقبة خطيرة من التاريخ الاسلامى .

الفصل السادس

فى معسكرين

اسلم ابو بكر ودخل فى الدين الجديد راضيا . وأسلمت زوجه أم رومان . وشبت عائشة فوجدت أبويها مسلمين . أما عبد الرحمن فقد كان فتى يافعا يوم أخذ النبى يدعو الى الدين الجديد . فلم يؤمن به . ولم يدخل فيه . بل ساءه ان يؤازر ابوه هذه البدعة الجديدة التى جاء بها محمد . انه ليحب اباه حبا جما . ولكنه يحب آلهته ولا يطيق بها كفرا . لقد فاضل بين ارضاء ابيه واغضاب آلهة ابائهم . فاختار هجر ابيه وغضبه على غضب الآلهة . فهجره وانضم الى أعدائه وناصب الدعوة الجديدة العداء منذ اللحظة الأولى .

كان عبد الرحمن مشغولا بليلى . يفكر فيها ويرجو وصالها . وكان طيف ليلى يؤرقه . حتى اذا ما اسلم ابو بكر اخذ يفكر فى هذا العار الجديد الذى لحقه ولحق أسرة أبى قحافة . وأخذ يفكر فى قتل ابى بكر ليغسل ذلك العار الذى لطخ بيتهم . ان ابا بكر قد انضم الى الصابئين الذين نالوا من هبل العظيم . وسفهوا أحلامهم وأحلام ابائهم فحق عليه الموت . فليعملن عبد الرحمن على القصاص منه . وليعيدن الى الأسرة شرفها ومكانتها !

وساء عبد الرحمن خروج أبى بكر مع النبى الى يثرب . وساءه خروج امه واخته عائشة ليعيشوا بين ناس غير ناسهم . فازدادت

موجدته على أبيه ، فلولاه ما خرجت أمه ولا خرجت عائشة . وزاد فى غضبه تزويج عائشة من محمد ، فأقسم لينتقمن من هذه العصبة التى فرقت بين المرء وأهله .

وخرج عبد الرحمن يضرب فى طرقات مكة ، فصك أذنيه صوت صائح يصيح :

ـ يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة ، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمــد فى أصحابه ، لا أرى أن تدركوها . الغوث الغوث .

فالتفت عبد الرحمن فرأى ضمضم بن عمــرو الغفــارى وهو يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعــيره قد جدع بعــيره ، وحول رحله ، وشق قميصــه ، فثارت ثائرة عبد الرحمن ، أفما كفى محمدا ما جاء به من الفرقة حتى يعترض العير ، ويقطع طريق الشــام ؟ وانطلق الرجال ليروا رأيهم ، فاتفقوا جميعا على الخروج . وأخذوا يقولون : .

ـ أيظن محمــد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى ! كلا والله ! ليعلمن غير ذلك .

وتجهز الناس سراعا . وخرجت مكة كلها لتقول كلمتها .

★ ★ ★

وتأهب الفريقان للقتال ، فوقف الجيشان وجها لوجه ، فى جيش قريش عبد الرحمن يتحرق الى قتل أبى بكر ، وفى جيش المسلمين أبو بكر الصديق مع رسـول الله فى العــريش ، يرد على منكبى الرسول رداءه الذى سقط منه وهو يبتهل الى الله ينشده ما وعده ،

ويسأله أن يتم له النصر • وخرج النبى وأبو بكر من العـريش • ويرز عبد الرحمن من صفوف الأعداء وصاح :

ـ يا محمد اخرج الى أبا بكر •

فتقدم ابو بكر ليبارز عبد الرحمن ، ولكن رســول الله منعـه وقال :

ـ امتعنا بنفسك •

وابتدا النبى يحرض القوم ثم قال : « سيهزم الجمع ، ويولون الدبر ، بل الساعة موعدهم ، والساعة ادهي وامر » . ثم أخذ حفنة من الحصباء ، فاستقبل بها قريش ، ثم قال : « شاهت الوجوه » ثم نفخهم بها وقال لأصحابه :

ـ شدوا •••

فتزاحف الجيشان • ودارت معركة رهيبـة انجلت عن انهزام قريش هزيمة نكراء ، وسقط صناديد قريش صرعى ، ومن لم يقتل من اشرافهم وقع فى الأسر ، ووقع عبد الرحمن اسـيرا ، فأصبح ذليلا ، ينتظر قضاء محمد رسول الله فيه •

وراح النبى يشاور ابا بكر وعمر وعليا فى امر الاسـارى ، فقال ابو بكر :

ـ يا نبى الله ، هؤلاء بنو العم والعشيرة والاخوان ، فانى ارى ان نأخذ منهم الفـدية ، فيكون ما اخذنا منهم قوة ، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضدا •

فالتفت النبى الى عمر وقال :

ـ ما تقول يا بن الخطاب ؟

ـ لا والله ما ارى الذى رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكننى

من فلان فاضرب عنقه ، وتمكن حمزة من اخ له فيضرب عنقه ، وتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه حتى يعلم الله ان ليس فى قلوبنا هوادة للكفار ، هؤلاء صناديدهم وقادتهم وائمتهم .

فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهم ثم دخل ، فقال ناس يأخذ بقول ابى بكر ، وقال ناس يأخذ بقول عمر ، وباتت حياة عبد الرحمن والاسرى فى كفة الميزان .

وانقضى الوقت على الأسرى كاسوا ما ينقضى وقت ، وخرج عليهم النبى وقال :

ـ ان الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون الين من اللبن ، وان الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون اشد من الحجارة ، وان مثلك يا ابا بكر مثل ابراهيم قال : « من تبعنى فانه منى ، ومن عصانى فانك غفور رحيم » ، ومثلك يا ابا بكر مثل عيسى قال : « ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » ومثلك يا عمر مثل نوح ، قال : «« رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » ، ومثلك كمثل موسى قال : « ربنا اطمس على اموالهم ، واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم » .

ثم قال النبى :

ـ انتم اليوم عالة ، فلا يفلتن منهم احد الا بفداء او ضرب عنق .

وأجاز النبى الفداء ، فأرسل أهل مكة بفداء أسرائهم ، واطلق سراح عبد الرحمن بن أبى بكر ، فخرج من يثرب وهو يفكر فى محمد ودينه الجديد .

الفصل السابع

حديث الافك

خاض المسلمون غمار المعارك . فذاقوا لذة النصر فى بدر ، ولمسوا مغبة التهاون فى تنفيذ اوامر النبى فى أحد ، وتيقنوا أن ما وعدهم الله حق فى الخندق . فقد وعدهم النصر بعد الحصر ، فصدق وعده ، واعز جنده ، وهزم الاحزاب وحده ، وما ان انفضت قريش عن الخندق ، وما ان اصبح الصبح حتى انصرف المسلمون عن الخندق راجعين الى المدينة ، ووضعوا سلاحهم ، فجاء جبريل الى النبى وقال :

– أقد وضعت السلاح يا رسول الله ؟

– نعم .

– ان الملائكة لم يضعوا السلاح بعد ، وان الله يأمرك يا محمد بالسير الى بنى قريظة ، وانا عامد الى بنى قريظة .

فانطلق المسلمون لقتال اليهود الذين عاهدوهم ثم نقضوا عهدهم وانضموا الى الاعداء ، فحاصروهم فى حصونهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فأرسل النبى اليه وقال :

– احكم فيهم . .

– فانى احكم فيهم ان تقتل مقاتلتهم ، وان تسبى ذراريهم ، وان تقسم اموالهم .

– لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله .

ومرت شهور ، وبلغ رسول الله أن الناس بالمصطلق يجتمعون له . فلما سمع رسول الله بهم أخذ يتأهب للخروج لهم ، فأقرع بين أزواجه ، فأيهن خرج سهمها خرج بها ، فخرج سهم عائشة ، فلما تم تجهيز الحملة خرجت عائشة ، وجلست في هودجها ، وجاء القوم وأخذوا يسقل الهودج ورفعوه ووضعوه على ظهر البعير ، ثم شدوه بحباله ، واذن بالرحيل فانطلق جيش المسلمين الى بني المصطلق ، وأخذ القوم برأس بعير الهودج ، واستمر الجيش في سيره حتى بلغ ماء من مياه بني المصطلق يقال له المريسيع فالتقى بالعدو ، وتزاحف الناس واقتتلوا قتالا رهيبا ، وهزم الله بني المصطلق ، وراح النبي يقسم سباياهم فوقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس فكاتبت ثابت على نفسها ، وانطلقت الى رسول الله تستعينه على كتابتها ، وطلبت الاذن بالدخول ، فخرجت لها عائشة فرأت أمامها امرأة رائعة الجمال ، حلوة ملاحة لا يراها أحد الا أخذت بنفسه ، فوالله ما هو الا أن رأتها حتى كرهتها ، وعرفت أن النبي سيرى منها مثل ما رأت ، ودخلت جويرية على رسول الله ، وعائشة منقبضة ، تحس بالغيرة تزحف في صدرها وتنتشر حتى تملأه جميعه وتسيطر عليها ، ولما مثلت جويرية أمام الرسول قالت :

ـ يا رسول الله ، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، سيد قومه ، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك ، فوقعت في السهم لثابت بن قيس ، فكاتبته على نفسي ، فجئتك استعينك على كتابته .

رأى النبي جويرية فوقع ما كانت تخشاه عائشة ، فقال لها :

ـ فهل لك في خير من ذلك ؟

ـ وما هو يا رسول الله ؟

ـ أقضي كتابتك وأتزوجك .

ـ نعم يا رسول الله .

ـ قد فعلت .

وخرج الخبر الى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوج من جويرية . فأرسل النـاس ما بأيديهم وقالوا : « اصهار رسول الله » واعتق بتزويجه اياها مائة أهل بيت من بني المصطلق . فيا لها من امرأة عظيمة البركة على قومها !

وانطلق الناس الى الميـاه . وانطلق أجير لعمـر بن الخطاب اليـــه . وازدحم ورجل من الأنصار على الماء فاقتتـلا . فصرخ الأنصـاري : يا معشر الأنصــار . وصرخ اجير ابن الخطاب : يا معشر المهاجرين . فرأى عبد الله بن سلول الفرصة سانحة لينال من محمد الذي استلبه ملكا . فشاء أن يهتبلها فقال :

ـ قد فعلوها . قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا . والله ما عدونا وجلابيب قريش ما قال القائل : « سمن كلبك يأكلك » . اما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

والتفت الى من حوله من الأنصار وقال :

ـ هـذا ما فعلتم بأنفسكم . أحللتموهم بلادكم . وقاسمتموهم اموالكم . اما والله لو امسكتم عنهم ما بأيديكم . لتحولوا الى غير بلادكم .

وسمع غلام حديث السن ذلك فمشى به الى رســول الله وعنده عمر بن الخطاب . فبان الغضب في وجه ابن الخطاب وقال :

ـ يا رسول الله . مر به عباد بن بشر فليقتله .

ـ فكيف يا عمر اذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟
لا ، ولكن اذن بالرحيل ٠

وارتحل القوم فى ساعة لم يكن رسول الله يرتحل فيها ٠ وانطلقت عائشة مع القوم فى هودجها ـ واستمر الركب فى السير يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس وقد نال منهم التعب ، فلم يكن الا أن وجدوا مس أرض وقعوا نياما ، فلم يترك لهم النبى فرصة التحدث فى حديث ابن أبى ، بل شغلهم بالتعب عن الخوض فى الحديث ٠

واستراح الناس ثم أذن بالرحيل ، فانطلقوا حتى دنوا من المدينة قافلين ، ثم نزلوا منزلا فباتوا فيه بعض الليل ثم أذن فى الناس بالرحيل ، وخرجت عائشة لبعض حاجتها وفى عنقها عقد لها ، فلما فرغت انسل من عنقها دون أن تحس ، وعادت الى الرحل وذهبت تلتمسه فى عنقها فلم تجده ، فأسرعت بالعودة للبحث عنه ، واستمرت فى بحثها وقد أخذ الناس فى الرحيل ، وأقبل القوم واحتملوا هودجها ووضعوه على البعير ، ثم شدوه اليه بحباله ، وانطلقوا وما دروا أن صاحبة الهودج ليست فيه ٠ ووجدت عائشة عقدها فأخذته ورجعت الى المعسكر وما فيه داع ولا مجيب ٠ فراحت تفكر فيما تفعل ، فهداها فكرها الى أن تنتظر لا تريم ، فاذا ما افتقدوها عادوا اليها لحملها ٠ وبقيت عائشة وحدها فى الصحراء المترامية ، فى سكون الليل المخيف ٠ ولكنها لم ترتجف فقد كانت على يقين من أنها فى كنف رب العالمين ، وتلففت بجلبابها ثم اضطجعت فى مكانها الذى ذهبت اليه ، وغلبتها عينها فنامت ٠

وكان صفوان بن المعطل السلمي قد تخلف عن المعسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس فى العسكر . فاخذ يغذ فى السير ليلحق بالركب . واستمر فى سيره حتى بلغ منزل عائشة مع الصبح . فرأى سوادا فترجل عن بعيره . واقبل حتى رأى عائشة ام المؤمنين . زوجة رسول الله نائمة . فاسترجع وقال :

ـ انا لله وانا اليه راجعون . اظعينة رسول الله ؟ !

واستيقظت عائشة . ورأت صفوان فغطت وجهها بجلبابها . فقال صفوان وهو مطرق الى الأرض :

ـ ما خلفك رحمك الله ؟

فلم تنبس عائشة بكلمة . فقرب البعير وأناخه وقال :

ـ اركبى رحمك الله .

فقامت عائشة وامتطت الراحلة . ثم اخذ صفوان براس البعير وانطلق قدما يطلب الناس . لا ينظر خلفه . ولا تنفرج شفتاه لتخرج كلمة حتى اتيا الجيش موغرين فى نحر الظهيرة وهم نزول .

دخلت عائشة العسكر وصفوان آخذ براس البعير . وكانت عائشة مرفوعة الراس . وكان صفوان صافى النفس . ولم يوح طلوع عائشة وصفوان على الناس الى المؤمنين شيئا . فقد كانت نفوسهم طاهرة . ولكن كان هناك كبير المنافقين عبد الله بن أبى ابن سلول الذى اكلت الغيرة قلبه . وملا الحقد نفسه . فلما راى زوجة غريمه مقبلة بعد الناس مع صفوان . راى ان يشكك الناس فى زوج نبيهم الأثيرة عنده فعاهده شيطان نفسه على ان يخوض الافك . وعلى أن يلوث عائشة الطاهرة الذيل . لعل نفسه تهدا ولعل داء قلبه يبرا . فراح يوسوس للناس . ويوسع الأرض

الساعة . ورأى بعض الآذان الواعية . فتمادى فى غيه حتى ارتج المعسكر .

وعاد الناس الى المدينة وما درت عائشة شيئا . واستمر الناس فى عبهم . فأخذ حسان بن ثابت شاعر الرسول يتقول . وراح مسطح بن اثاثة الذى كان معش على ما يتصدق به ابو بكر عليه يخوض مع الخائضين فى حديث الافك . ورأت حمنة بنت جحش أن تزيد النار لهيبا لعل النبى يطلق عائشة فيخلو وجهه لأختها زينب . التى كانت عنده . واشتكت عائشة وسقطت فريسة المرض . وانتهى الحديث الى النبى وابى بكر وام رومان . فأما ابو بكر وام رومان فقد نزل بهما هم ثقيل . فكان قلباهما يحترقان غيظا ولا يحركان لسانهما بكلمة . ينتظران رحمة الله . ولا ينكران لعائشة شيئا . انها لتشتكى شكوى شديدة . وان الم نفسيهما الذى يعانيانه لأشد من ألمها . واما رسول الله فقد اذاه ما بلغه . وشاء الا يصدق حديث السوء . فانه لا يعلم عن عائشة الا خيرا . ولكن ما بال الناس يتقولون عليها ؟ وراح يفكر فى امر عائشة فقلقه فكره . ودخل يعودها فلم يستطع ان يدارى ما به . فلم يلاطفها كما اعتاد أن يلاطفها كلما وعكت . فأنكرت عائشة منه ذلك . وراحت تفكر لعل جويرية زوجه قد شغلته عنها . وخرج النبى ولم يمكث طويلا فقد حز الحزن فى نفسه . واستمر يقلقه فكره . فانطلق الى زينب بنت جحش وهى التى كانت تساميها من أزواج النبى يسائلها عن امر عائشة . فلما دخل عليها قال :

ــ ماذا علمت أو رأيت ؟

ــ يا رسول الله أحمى سمعى وبصرى . والله ما علمت الا خيرا .

ودخل النبى على عائشة وامها تمرضها فقال : كيف تيكم ؟
ولم يزد على ذلك ، فاحست عائشة فى صوته جفاء . فوجدت فى نفسها ، وعزمت على ان تترك له الدار فقالت :
ـ يا رسول الله . لو اذنت لى فانتقلت الى امى فمرضتنى ؟
ـ لا عليك .
وانتقلت عائشة الى دار أمها لا تعلم بشىء وهى تحس فى نفسها موجدة على الرسول ، فقد ولى لطفه بها وما كانت تحسب أن يتخلى عنها هكذا سريعا فى مرضها . واستمر الناس يخوضون فى حديث الافك فلم يطق النبى صبرا ، فقام فى الناس يخطبهم :
ـ ايها الناس ، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ، ويقولون عليهن غير الحق ، والله ما علمت منهن الا خيرا ، ويقولون ذلك لرجل ما علمت منه ألا خيرا ، وما دخل بيتا من بيوتى الا وهو معى .
فقال أحد الأوس :
ـ ان يكونوا من الاوس نكفيكهم ، وان يكونوا من اخواننا الخزرج فمرنا بأمرك . فوالله انهم لأهل ان تضرب أعناقهم .
فقام سعد بن عبادة وقال :
ـ كذبت . لعمر الله لا تضرب اعناقهم ، اما والله ما قلت هذه المقالة الا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج . ولو انهم من قومك ما قلت هذا .
ـ كذبت لعمر الله . ولكنك منافق تجادل عن المنافقين .
وتثاور الناس حتى كاد أن يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر ، فانشرح صدر عبد الله بن أبى بن سلول . فقد أيقظ

الفتنة التى ذاعت بالاسلام ، وابتدأ معول الهدم يدك ملك محمد ، ولكن محمدا قتل الفتنة قبل ان تتحرك ، فكاد ابن ابى ان يموت كمدا .

ونقهت عائشة . وخرجت فى الليل مع ام مسطح قبل المناصع وكان متبرزهم . واقبلتا قبل البيت حين فرغتا من شأنهما ، فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت :

- تعس مسطح .

فقالت لها عائشة :

- بئس ما قلت . اتسبين رجلا شهد بدرا ؟

- او ما بلغك الخبر يا بنت ابى بكر !

- وما الخبر ؟

فأخذت ام مسطح تقص حديث الناس . وما لاكته الالسن من حديث الافك فاضطربت عائشة ، واحست الأرض تميد بها ، وعلمت سبب جفوة النبى ، فانهمر دمعها وقالت وهى لا تتمالك نفسها .

- وقد كان هذا ؟

- نعم . والله لقد كان .

واستندت على ذراع ام مسطح ودخلت الدار وقد ازدادت مرضا على مرضها . وما زالت تبكى حتى لكاد البكاء يصدع كبدها . واقبلت امها . فقالت لها عائشة عاتبة :

- يغفر الله لك . تحدث الناس بما تحدثوا به ، وبلغك ما بلغك ولا تذكرين لى من ذلك شيئا .

فشاءت الام ان تخفف عن ابنتها وقع مصابها . وأن تهون عليها ما بلغها . فقالت بصوت كله حنان

ـ اى بنية ، خفضى الشان ، فوالله قل ما كانت امراة وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر الا كثرن وكثر الناس عليها ٠

واستمرت عائشة فى بكائها ٠ فبكت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع ، ولا تكتحل بنوم ، ولا يهدأ لهــا فكر ، ومرت أيام وحديث الافك شغل الناس الشاغل ، وانتظر النبى براءة عائشة ، فانه لا يستطيع أن يصدق ما قيل ٠ كما انه لا يملك البرهان الحاسم الذى يبرئها مما لصق بها ٠ لقــد اختبر فى أعز ما يملك فصبر ولكن حديث الناس يؤنبه ، فشاء ان يضع لذلك الأمر حدا ، فدعا على بن ابى طالب واسامة بن زيد يسالهما ويستشيرهما فى فراق اهله ، فقال اسامة :

ـ يا رسـول الله اهلك ولا نعلم عليهن الا خيرا ، وهذا الكذب والباطل ٠

وقال على :

ـ يا رســول الله ، ان النســاء لكثير ، وانك لقــادر على أن تستخلف ، وسل الجارية فانها تصدقك ٠

ودعا رسول الله بريرة يسالها :

ـ أى بريرة ، هل رأيت من شىء يريبك ؟

ـ لا ٠

فقام اليها على فضربها ضربا شديدا ، وهو يقول :

ـ اصدقى رسول الله ٠

ـ والذى بعثك بالحق ما رايت عليها أمرا قط اغمطه غير انها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتاتى الدواجن فتاكله ٠

وكانما القى على بفعلته هــذه بذرة أخرى من بذور الكره فى

صدر عائشة . وستنمو هذه البذرة على الأيام حتى لتؤتى ثمارها عقب مقتل عثمان .

واستمرت عائشة فى بكائها لا يرقأ لها دمع ، ولا تكتحل بنوم ، واصبح ابوها عندها ، وقد بكت ليلتين ويوما حتى لظن ان البكاء فالق كبدها . فبينما ابو بكر وام رومان جالسان والألم الشديد يرتسم على وجهيهما وعائشة تبكى ، استأذنت امرأة من الانصار فى الدخول فاذن لها فجلست مع عائشة تبكى . وبينما هم على ذلك دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم فسلم ثم جلس ، ولم يجلس عند عائشة قبلها منذ قيل ما قيل ، وقال حين جلس

– اشهد ان لا اله الا الله : أما بعد يا عائشة ، انه قد كان ما بلغك من قول الناس . فان كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه ، فان العبد اذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه .

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته ، قلص دمع عائشة حتى ما نحس منه قطرة . والتفتت الى أبيها وقالت :

– أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنى فيما قال .

فقال أبو بكر :

– والله لا أدرى ما اقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

فالتفتت الى أمها وقالت :

– أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال .

– ما أدرى ما اقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقالت عائشة :

– انى والله لقد علمت ، لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به . فلئن قلت لكم انى بريئة لا تصدقونى . ولئن

« اعترفت لكم بأمر والله يعلم انى منه بريئة لتصدقنى . والله لا اجد لى ولكم مثلا الا ابا يوسف حين قال : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

ثم تحولت واضطجعت على فراشها . والله يعلم حينئذ انهـا بريئة . وقد كانت فى هذه الساعة على يقين اكثر من اية سـاعة مضت أن الله مبرئها ببراءتها . ولكنها ما كانت تظـن ان الله منزل فى شأنها وحيا يتلى . فقد كانت احقر فى نفسها واصغر شأنا من أن ينزل الله عز وجل فيها قرآنا يقرأ به فى المساجد ويصلى به ، ولكنها كانت ترجو ان يرى رسول الله فى نومه رؤيا يبرئهـا الله بها . ولكن ما رام رسول الله صلى الله عليـه وسلم مجلسه . وما خرج احد من اهل البيت حتى انزل عليه . فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى أنه لينحدر منه من العرق مثل الجمان وكان اليـوم شاتيا . فسجى بثوبه . ووضعت وسادة من ادم تحت رأسه . وبان الفزع على وجه أبى بكر وام رومان . فعمـا قليـل يقول الله قوله الفصل . وأخذ قلباهما يخفقان . اما عائشة فوالله ما فزعت كثيرا . ولا بالت فهى على يقين من براءتها . ومن ان الله غير ظالمهـا . وسرى عن رسول الله فبـان الرعب فى وجهى أبى بكر وام رومان حتى لتكاد روحاهما ان تفرا فرقا ان يأتى من الله تحقيـق ما قال الناس . وجلس النبى فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول

ـ ابشرى يا عائشة فقد انزل الله براءتك .

فظهر السرور فى وجه ابى بكر فقـد برا الله ابنته . واسرعت ام رومان الى عائشة والفرح يهزها وتقول لها

ـ قومى اليه .

فقالت عائشة في ثبات :

ـ لا والله لا أقوم اليه ، فاني لا احمد الا الله عز وجل .

وخرج النبي الى الناس وخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله عز وجل « ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » واستمر يتلو ما أنزل الله من احكام وعقوبة رمي المحصنات . ولما انتهى من تلاوته امر بمسطح وحسان ابن ثابت وحمنة بنت جحش فضربوا حدهم ثمانين جلدة . وساء أبا بكر ان يكون مسطح الذى ينفق عليه لقرابته وفقره ممن أفصح بالفاحشة . فقال والغيظ يهز قلبه :

ـ والله لا انفق على مسطح شيئا أبدا بعد الذى قال لعائشة ما قال .

ولكن أنزل الله تعالى : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة ان يؤتوا اولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا . الا تحبون أن يغفر الله لكم . والله غفور رحيم » .

فقال ابو بكر :

ـ بلى والله انى لاحب ان يغفر الله لى .

فرجع الى مسطح النفقة التى ينفق عليه وقال : « والله لا انزعها منه ابدا » .

الفصل الثامن

ابن الزبير

مست يد الزمن الساحر وليد الأمس . فنما عبد الله بن الزبير فى منزل النبوة . فتفتحت عيناه أول ما تفتحت على نور الاسلام الباهر فألفت النور . وطرق أذنيه أول ما طرق أذان المسلمين . فقد أذن له فيهما جده الصديق يوم ولادته بين التكبير والتهليل . ثم وعى ما وعى خير القول : وعى قرآن الله وحديث الرسول . وانطلق أول ما انطلق الى المسجد يرقب القوم وهم بين يدى الله خاشعون . ثم سار بعد ذلك الى المسجد يشارك القوم عباداتهم ، وصار المسجد له مقاما ومستقرا . فلا غرو أن أطلق القوم عليه « حمام المسجد » .

نبتت هذه النبتة الصغيرة فى تربة صالحة طيبة ، فكانت تستوى على عودها قوية فتية متينة . وابتدأت هذه النفس الصغيرة تتلفت لتجمع مقومات شخصيتها ، قرأت عظمة حيثما أدارت عينيها ، ومثلا عليا ، وشخصيات فذة . فأخذت تنهب من هنا نهلة ومن هناك نهلة ، وتحتذى بهذه القدوة مرة ، وبتلك مرة ، حتى تكونت أخيرا شخصيتها وتبلورت . فاضحت شخصية مميزة معروفة .

وقتل جعفر بن أبى طالب فى مؤتة ، فترك زوجه عاتكة بنت زيد ، وكانت عاتكة شابة ، رائعة الحسن ، رضية الخلق ،

فخطبها عبد الله بن أبى بكر وبنى بها ، وهام بها حبا ، وتأهب المسلمون لقتال هوازن . فراح عبد الله يودع زوجه قبل أن يخرج فى جيش المسلمين ، وخرج ابن الزبير ليشاهد الجيش العظيم الذى سينفصل بعد حين من المدينة ميمما صوب هؤلاء الذين ناصبوا المسلمين العداء ، وبلغ ابن الزبير العسكر فدخل فرأى ما سلب لبه : رأى جموعا زاخرة ، ودروعا لامعة ، وأسيافا وامضة ، وفرسانا صناديد . فراح يدور بعينه فى المعسكر مشدوها ، ووقع بصره على خاله عبد الله بن أبى بكر فى عدة القتال ، مفتول الساعد ، قوى البنيان ، ثابت الخطو ، شامخ الأنف . فقد بلغ مبلغ الرجال الشجعان يخوض غمار الحروب ، فيصول صول الأسود . فتمنى الغلام أن يمر الزمن سريعا ليبلغ أشده فيخرج للقتال ، ولكن مهلا فغلام الاسراع ، فغدا تسل سيفك وتخوض غمار حروب يشيب من هولها الولدان ، فمهلا مهلا ، فما جئت الى الدنيا الا للكفاح والجلاد ، والطعن والكر والفر والنزال .

وأقبل كبار الصحابة ، فلما رأى الزبير ابنه عبد الله تهللت أساريره ، وبان فى وجهه الرقة والحنان ، وأخذ يختلس النظر اليه راضى النفس ، منشرح الصدر ، ولو طاوع نفسه لأسرع اليه وضمه الى صدره ، وراح يمطره قبلات ، ولكنه كبح رغبته ، وانطلق ، ومر على بن أبى طالب بالغلام ولم يفطن اليه ، وأقبل عثمان بن عفان فتطلع اليه الصبى فى اجلال ، وانصرف كبار الصحابة ، وما دار بخلد أحدهم أن لمسة أخرى من يد الزمن الساحر لهذا الغلام تجعله شابا قويا يرجى خيره ، ويلتمس عونه ، ولكن رويدا فغدا يقص الزمن نبأه ، ويروى فعاله ، فهو قطب الحوادث ، ومحور الرجاء ، ومحط الأنظار .

وخرج القوم لقتال هوازن ، وعاد الصبى ، واحلام القتال تتخايل له ، وتمر بذهنه فى اشكال والوان ، وتظر أمامه فى شرود ، وكانت الامانى الكبار تحتل راسه الصغير ، ان مجدا يبنى امام عينيه ، فراح يتطلع الى المجد والعز والسلطان ·

وانتهى القتال وعاد الجيش الى يثرب ظافرا ، وعاد عبد الله ابن ابى بكر الى الدار وقد خلصت اليه الجراح ، فاسرعت عاتكة اليه وراحت تمرضه وتبذل ما وسعها البذل لراحته ، ان جراح عبد الله لجد خطيرة وان عناية عاتكة به لجد فائقة ، فكم من ليالى سهرتها بجواره تواسيه ، فاندملت جراح عبد الله سريعا ، فلكأنما كان البلسم الشافى فى انامل عاتكة ، بل لقد كان الدواء الفعال فى بسمتها الحلوة ، التي كانت تمنحها له دواما ، فتشد من عزمه ، وتزيد فى قوة مقاومته لجرحه ·

وراح ابن الزبير يعود خاله ، فلما برىء عبد الله اخذ ابن الزبير يسأله عن القتال ، فراح عبد الله يقص عليه حديث هوازن وفرار المسلمين ، وثبات النبى وحده وهتافه فى الناس الفارين : « أين أيها الناس أين ؟ » واستمر ابن ابى بكر فى حديثه والغلام مرهف السمع ، يرتسم فى وجهه القلق حينا ، والرضى أحيانا ، وانتهى عبد الله من حديثه ، فانصرف ابن الزبير وهو يفكر فى الحروب ، ويحلم بفعال البطولة والأبطال ·

★ ★ ★

ودخل ابن الزبير على رسول الله وهو يحتجم ، فجعل يرقبه ، فلما فرغ النبى قال :

– يا عبد الله اذهب بهذا الدم فاهرقه حيث لا يراك احد ·

فتناول عبد الله الطست وخرج . ثم دخل سلمان الفارسي على النبي ، واخذا بأطراف الحديث . وانقضى قليـــل وقت ، ثم دخل عبد الله . فالتفت اليه النبي وقال :

ـ فرغت ؟

ـ نعم .

فقال سلمان :

ـ ما ذاك يا رسول الله ؟

فقال النبي :

ـ اعطيته محاجمي يهريق ما فيها .

فتذكر سلمان انه رأى ابن الزبير عند دخوله معه طست يشرب ما فيها فقال :

ـ ذاك شربه والذي بعثك بالحق .

فالتفت رسول الله الى عبد الله وقال :

ـ شربته ؟

ـ نعم .

ـ لم ؟

ـ احببت أن يكون دم رســول الله صــلى الله عليه وسلم فى جوفى .

فوضع النبي يده على رأس ابن الزبير وقال :

ـ ويل لك من الناس . وويل الناس منك .

الفصل التاسع

كيــــد

ابتدأ طواف النبى على نسائه ، وأخذت عائشـــة ترقب دخوله وخروجه من كل دار ، ودخل النبى بيت ام سلمة ، فأحست عائشة غيرة ، فانهـــا لاحظت أنه يحتبس عنـدها ، فاشتد ذلك عليهـــا ، واستمرت فى مكانها تتطلع قلقة ، وانقضى وقت خالته دهرا ، ولمحت النبى يخرج من عند أم سلمة ، وييمم شطر دارها ، فأخذت تصلح من هيئتها ، ودخل النبى عليها ، ودنا منها ثم قبلها ، فنظرت اليه وقالت :

ــ أين كنت منذ اليوم ؟

ــ يا حميراء كنت عند أم ســلمة .

ــ ما تشبع من أم سلمة !

فتبسم النبى وقالت عائشة :

ــ يا رسول الله الا تخبرنى عنـــــك ، لو أنك نزلت بعــدوتين ، احداهما لم ترع ، والأخرى قد رعيت ، أيهما كنت ترعى ؟

ــ التى لم ترع !

ــ فانا ليس كاحد من نسائك ، كل امرأة من نسائك قد كانت عند رجل غيرك .

فتبســم رسول الله وقام ، فـــلم يكن اليوم يوم عائشـــة ليمكث عندها .

وخرج النبى . وبقيت عائشة تفكر فى أمر أم سلمة ، فما بال النبى يمكث عندها دون نسائه اذا ما دخل عليها فى طوافه اليومى . واستمرت فى تفكيرها . وأخيرا عقدت العزم على أن تخبر حفصة الخبر . وفى اليوم الثانى كانت عائشة بنت الصديق وحفصة بنت ابن الخطاب يرقبان منازل أزواج النبى ، وابتدا النبى فى طوافه على نسائه حتى يأتى على آخرهن . ودلف من باب أم سلمة . فنظرت عائشة الى حفصة ، واحتبس رسول الله عندها ، فقالت حفصة

ـ ما أرى رسول الله يمكث عندها الا انه يخلو معها .

فلما سمعت عائشة ذلك القول ، تحركت عقارب الغيرة فى صدرها ، وكأنما لم يدر هذا الخاطر فى رأسها من قبل ، فاشتد ذلك عليها حتى فكرت فى أن تبعث من يطلع لهـا ما يحبسه عندها .

انتظرت عائشة وحفصة عودة الجارية التى أوفدتها لتكشف لها عن سر مكوث النبى فى بيت أم سلمة . وأقبلت الجارية فقالتا لهـا :

ـ ما وراءك ؟

ـ اذا صار اليها أخرجت له عكة من عسل ثم فتحت فمه فيلعق منه لعقا .

وانصرفت الجارية ، وجلست عائشة وحفصة تفكران فيما يفعلان ليمنعاه من المكوث عندها ، ففكرتا فى أن يكرهاه فى العسل ، قالت حفصة :

ـ ما من شىء نكرهه اليه حتى لا يلبث فى بيت أم سلمة :

ـ ليس شيء أكره اليه من أن يقال له : نجد منك ريح شيء ، فاذا جاءك فدنا منك فقولى : انى اجد منك ريح شيء ·

ودخل النبى على عائشة كما اعتاد ان يدخل كل يوم ، ودنا منها ليقبلها فقالت :

ـ انى لاجد منك شيئا ، ما أصبت ؟

ـ عسل من بيت أم سلمة ·

فقالت عائشة فى هدوء :

ـ يا رسول الله ، أرى نحله جرس عرفطا ·

واستمر النبى فى طوافه على نسائه فكان كلما دنا من واحدة قالت له : « انى اجد منك ريح شيء » فكان يقــول : « من عسل اصبته عند ام سلمة » ، وعزم النبى على الا يذوق العسل ، وهكذا نجحت مؤامرة بنت ابى قحافة ·

★ ★ ★

وأسنت سودة بنت زمعة أولى أزواج النبى بعد خديجة ، فكان رسول الله لا يستكثر منها - وكانت سودة تعلم مكان عائشة منه ، فوهبتها يومها وليلتها ، تبغى بذلك رضى رسول الله ، فأصبح لعائشة يومان وليلتان ، فساء ذلك نســاء النبى ، وتشــاورن فى الأمر ، فرأين ان يرسلن الى فاطمة بنت رســول الله ، فلمــا اقبلت فاطمة كلمنها أن تأتى رسول الله وتقول له : « ان أزواجك يسألنك العدل فى بنت ابى قحافة » ، فخرجت فاطمة ومكثت اياما لا تفعــل ذلك فانها لتعلم مكان عائشة منه ، وجاءتها زينب بنت جحش ، ولم يكن احد يناجى عائشة الا زينب ، فكلمت فاطمــة ان تأتى الرســـول تسأله العدل فى بنت الصديق ، فقالت فاطمة :

ـ انا افعل ٠

وانطلقت فاطمة الى ابيها ، ودخلت عليه وكان عند عائشة فقالت له :

ـ ان نساءك ارسلنني يسألنك العدل فى بنت أبى قحافة ٠

ـ زينب أرسلتك ؟

ـ زينب وغيرها ٠

ـ أقسمت هى التى وليت ذلك ٠

ـ نعم ٠

فتبسم رسول الله وقال .

ـ أى بنية . الیس تحبين من احب ؟

ـ بلى ٠

فنظر النبى الى عائشة وقال :

ـ فاحبى هذه ٠

وخرجت فاطمة ، وجاءت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، فحدثتهن بما كان بينها وبين ابيها . فقلن :

ـ ما اغنيت عنا شيئا . فارجعى الى رسول الله ٠

ـ والله ما أكلمه فيها ابدا ٠

وظهر الغيظ فى وجه زينب بنت جحش . فعزمت على ان تكلمه بنفسها . فانطلقت الى بيت عائشة ، واستأذنت على النبى ، فأذن لها فدخلت ، فوجدت عائشة بجواره ، فلم تلتفت اليها وقالت :

ـ يا رسـول الله ارسلنى أزواجك يسألنك العدل فى بنت أبى قحافة ٠

فلم ينبس بكلمة . فتضايقت زينب واخذت تسب عائشـة ٠

وطفقت عائشة تنظر الى رسول الله متى يأذن لها فيها . ولم تزل تنظر اليه حتى عرفت أن رسول الله لا يكره ان تنتصر منها . فوقعت عائشة فى زينب حتى أفحمتها . فتبسم رسول الله وقال :

ـ انها بنت أبى بكر *

★ ★ ★

وتزوج النبى من مارية القبطية . وكانت امرأة بيضاء جميلة جعدة . فأنزلها فى العالية . واصبح رسول الله يختلف اليها هناك ، وضرب عليها الحجاب . وقد غارت منها عائشة غيرة شديدة . فقد كان النبى يقضى عامة النهار والليل عندها . بينما هى حرمت منه . وراح ابن أبي طالب يظهر حبه لابراهيم وعطفه على أمه . فأوغر ذلك صدر عائشة عليه ، وراح يفسح الهوة التى بينهما . افما كفى ابن أبى طالب موقفه من الافك حتى يظهر الحنان الى ابن ضرتها ؟

وخرجت حفصة من بيتها الى بيت أبيها . فبعث رسول الله الى جاريته مارية ، فجاءته فى بيت حفصة ، وعادت حفصة الى دارها ودخلت فرأت النبى ومارية معه فى بيتها . فثارت ثائرتها واندلعت نار الغيرة فى صدرها . ولكنها لم تستطع ان تفعل شيئا . وانتظرت بالباب حتى خرجت مارية . فدخلت والغضب يهزها وقالت :

ـ يا رسول الله فى بيتى * وفى يومى وعلى فراشى ؟

ـ امسكتى فلك لا اقربها أبدا ، ولا تذكريه *

وخرج النبى وبقيت حفصة وحدها . واحست رغبة فى ان تفشى سر رسول الله . وراحت تقاوم رغبتها . ولكن كيف تبيت امرأة على سر . انه ليؤرقها ويقض من مضجعها . وان صدرها

ليضيق به ، ولن تستريح حتى تطلقه عن صدرها ، فانطلقت حفصة الى عائشة وافضت اليها بسر رسول الله ، وقالت لها فرحة :

ـ ابشرى ! فان رسول الله حرم وليدته ·

ودخل النبى على عائشة فاومأت اليه بحديث حفصة ، فساء النبى ذلك ، فما كان يحب أن تفشى حفصة سره ، فما وقع بينه وبين مارية الا ما يقع بين الرجل وزوجته · واهدى اليه هدية وهو فى بيت عائشة ، ولم تهدأ نفسه بعد ، فارسل الى كل امرأة من نسائه بنصيبها · وارســـل الى زينب بنت جحش فلم ترض ، فامر ان يزيدوها مرة أخرى فلم ترض ، فقالت عائشة :

ـ لقد اقمأت وجهك ان ترد عليك ألهدية ·

فقال النبى :

ـ لأنتن اهون على الله من ان تقمئنني ·

وساء النبى أن يتظاهر نساؤه عليه ، وهو الذي يعطف عليهن ، فخرج وقد عزم على أن يلقى عليهن درسا ·

واعتل النبى شهرا ، وقال الناس : « طلق النبى نســـاءه » ، ففزعت امهات المسلمين ، وثقـل ذلك على عائشـــة ، وراحت تعـد الليالى . فلما مضت تسع وعشرون ليلة دخل على عائشـــة وبدأ بها . فقالت عائشة :

ـ يا رسول الله ، أما كنت اقسمت الا تدخل علينا شهرا ، وانما أصبحت من تسع وعشرين أعدها لك عدا ·

ـ الشهر تسع وعشرون ليلة ·

ثم صمت النبى قليلا وقال :

ـ انى ذاكر لك امرا ، فلا عليـك الا تعجلى حتى تســتأمرى

ابويك . قال الله : « .. يأيهـــا النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعــالين أمتعكن واسرحكن سراحا جميلا . وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن اجرا عظيما » .

ـ ففى هذا استــأمر ابوى ؟ فانى اريد الله ورســوله والدار الآخرة .

الفصل العاشر

عابد قريش

انطلق عبد الرحمن بن ابى بكر عقب اطلاق اساره الى مكة وهو يفكر فى محمد ودينه الجديد . ودخل الكعبة وجعل يطوف بها ويتمسح باصنامها قبل العودة الى داره . ودارت عجلة الزمن دورة . فاكتمل الحول . فخرج اهل مكة للقصاص لما نزل بهم ببدر ، وخرج عبد الرحمن فى عدة القتال مع الموتورين الحاقدين الذين عزموا على استئصال محمد وشرذمته . والتقى المشركون بالمؤمنين عند اقدام جبل أحد ، ودارت رحى معركة رهيبة انجلت عن بقاء المسلمين فى الميدان منتصبين ، وعودة قريش ولم يستأصلوا محمدا وصحبه كما قدروا ، بل أبقى الله لهم ما يخزيهم ، وعاد عبد الرحمن وهو يفكر فى أمر محمد والدين الجديد .

واخذت عجلة الزمن فى دورانها ، وكانت فى كل دورة تمس صدر عبد الرحمن فتمسح عنه بعض ما به من حقد وسخيمة على المسلمين ، حتى برأ صدره . وازيلت غشاوة التعصب عن عينيه ، فتاق الى الاسلام ، وحن الى الخروج ليلحق بأهله الأكرمين ، انه ليتوق الى التملى من وجه ابيه ، والى ضم امه أم رومان الى صدره ، والى رؤية عائشة ، فلكم يحن اليهم ، فما حرمه منهم الا تعصبه الاعمى وتعلقه بالهة ما لها من سلطان ، وشاء أن يخرج ليلحق بهم ، ولكنه شارك قومه فى عدوانهم فلم يشأ أن يغضب

رفاقه . فانتظر على كره لعل الله يجعل له مخرجا . واقبل عام الصلح . وصالحت قريش محمدا فى الحديبية على انه من أحب ان يدخل فى عقد رسول الله وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه . فلحق عبد الرحمن بالمسلمين . وهاجر الى يثرب وقد اطمأنت نفسه بالاسلام ، واطفأ نار شوقه الى الأهل والخلان . ولم يبق له بعيدا من الاحبة الا ليلى ابنة الجودى . فليصبر فقد يجود الزمان بالوصال .

واستدارت اشهر الستة . واذن فى الناس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حاج فى هذا العام فأقبل الناس الى المدينة من كل فج عميق . ونزل بها كثير كلهم يلتمس ان يأتم برسول الله ويفعل فعله . وما وافى اليوم الخامس والعشرون من ذى الحجة حتى خرج رسول الله ومعه نساؤه جميعا كل فى محفتها ، وخرج ابو بكر ونساؤه جميعا . وكانت أسماء بنت عميس زوجه متما ، وخرجت أسماء ابنته وزوجها وابنهما عبد الله ، وخرج عبد الرحمن بن ابى بكر ونساؤه كما خرج عبد الله أخوه ، فكان ابناء ابى بكر جميعا فى صحبة النبى يأتمون به فى حجته الأخيرة .

سار المسلمون والغبطة تملأ قلوبهم . فقد ألف الله بينهم ، فأصبحوا بنعمته اخوانا بعد أن كانوا متنافرين متنابذين ، ساروا يحدوهم الايمان العميق ، والفرح الشديد لانطلاقهم للطواف ببيتهم المقدس الذى شرفه الاسلام فزاده شرفا على شرفه ، وعظمة فزاده عظمة على عظمته ، وبلغ الحجيج ذا الحليفة ، فنزل الناس ليبيتوا ليلتهم بها ، وأحست أسماء بنت عميس آلام الوضع ، فأرسلت الى زوجها ابى بكر ، فأسرع اليها ، ونقلت تحت شجرة لتضع له ابنا جديدا ، وانتظر ابو بكر وقد ساوره القلق الذى

يساور كل أب قبل أن يهبه الله فلذة كبده وقطعة نفسه ، واقبل البشير وأنباه ان الله رزقه ابنا ، فهدأت نفسه ، وانطلق ليرى وليده ، فقد كان أول وليد له بعد الاسلام ، ولم يفكر طويلا فى اختيار اسم له ، بل سماه باسم نبيه الكريم ، وخليله الأمين سماه محمدا ، واقبل على زوجه والبشر يشيع فى محياه ، وتناول الغلام وضمه الى صدره فى حنان ، ثم وضعه بجوار امه فى رفق ، وتطلعت أسماء الى ابى بكر وقالت :

ـ ما افعل ؟

فأطرق ابو بكر قليلا ثم خرج ليسأل رسول الله كيف تصنع زوجه بعد ان نفست بمحمد ، ثم عاد اليها وقال :

ـ اغتسلى واستثفرى بثوب واحرمى .

واصبح الصباح ، واحرم النبى وأحرم المسلمون معه ، وذهب آل ابى بكر للانطلاق مع النبى بعد أن أتم الله عقدهم ، فها هو وليد الامس ، عابد قريش ، ينطلق مع الحجيج ، ونادى رسول الله بالتلبية : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك ، والملك لك لا شريك لك » فكانت تلبية التوحيد أول ما بلغ سمع محمد بن ابى بكر .

وأدرك الناس بالعرج ونزل رسول الله فنزل الناس ، واقبلت عائشة واسماء بنت ابى بكر فألفيا النبى وابا بكر جالسين ، فجلست عائشة الى جنب النبى ، وجلست أسماء الى جنب ابيها ، واخذوا باطراف الحديث ، وكان ابو بكر ينتظر أن يطلع عليه غلامه ، فطلع عليه ، ليس معه بعيره ، فقال له ابو بكر :

ـ أين بعيرك ؟

ـ اضللته البارحة .

ـ بعير واحد تضله !

وقام ابو بكر وطفق يضرب غلامه ، فابتسم رسول الله والتفت الى عائشة واسماء وقال :

ـ انظروا الى هذا المحرم ما يصنع .

واستأنف الناس سفرهم حتى قدموا مكة فقال النبى :

ـ من اهل بعمرة ولم يهد فليحلل ، ومن احرم بعمرة واهدى فليهل بالحج مع العمرة ثم لا يحل حتى يحل منهما .

وابتدأ الطواف بالبيت فطاف الناس ، وحمل ابو بكر محمدا ابنه ، وراح يطوف به ، وسعى الناس بين الصفا والمروة ، وبقيت عائشة لا تطوف ، فاحست فى نفسها وجدا فقد حاضت واصبح الطواف محرما ، ولم تزل حائضا حتى كان يوم عرفة ، فبكت ودخل رسول الله عليها وهى تبكى ، فقال لها :

ـ مالك تبكين ؟

ـ ابكى ان الناس حلوا ولم أحل ، وطافوا بالبيت ولم اطف ، وهذا الحج قد حضر .

ـ ان هذا امر قد كتبه الله على بنات آدم ، فاغتسلى واهلى بحج .

ففعلت عائشة وانطلقت الى عرفة مع الحجاج ، ولما قضت حجتها وطهرت ، دخل النبى عليها وكان عندها اخوها عبد الرحمن ، فالتفتت اليه وقالت :

ـ يا رسول الله ، انى أجد فى نفسى من عمرتى أنى لم اكن طفت حتى حججت .

فقال النبى لعبد الرحمن :

ـ اذهب بها يا عبد الرحمن فاعمرها من التنعيم .

الفصل الحادى عشر

الرفيـق الأعلى

خرج النبى فى جوف الليل الى المقابر . وانطلق ليستغفر لأهل البقيع . وانطلق معه ابو مويهبة مولاه . فلما وقف النبى بين المقابر قال :

ـ السلام عليكم أهل المقابر ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه . اقبلت الفتن كقطع الليـل المظلم يتبـع آخرها اولا . والآخرة شر من الأولى .

وعاد الرسول الى الدار فوجد عائشة تشكو صداعا فى رأسها وتقول :

ـ وا راساه .

فقال لها :

ـ بل أنا يا عائشة وارأساه .

وجلس الى جنبها والتفت اليها وقال مداعبا :

ـ ما ضرك لو مت قبلي فقمت عليك وكفنتك ، وصليت عليـك ودفنتك .

ـ والله لكأنى بك لو فعلت ذلك رجعت الى بيتى فأعرست ببعض نسائك .

وقام النبى ليطوف على ازواجه كما عودهن ذلك ، وثقلت عليه وطأة المرض . فكان كلما دخل على واحدة منهن سأل :

ـ أين أنا غدا ؟

ففهمت ازواجه جميعـا أنه يبغى عائشـة . ولما كان فى بيت ميمونة ، ثقل عليه المرض ، فسال ازواجه ان يمرض فى بيت عائشة فاذن له . فخرج بين على من أبى طالب والعبـاس ، تخط قـدماه الأرض . عاصبا رأسه حتى دخل بيت عائشة ، واستقر فى البيت ، فلم يعد يخرج الا للصلاة ، ثم غمـر واشتد به الوجع فحبسـه ، وشاء أن يخرج ليعهد الى الناس ، فقال لأهله :

ـ اهريقوا على من سبع قرب من آبار شتى حتى اخرج الى الناس فاعهد اليهم .

فجيء بالماء ، واقعده أزواجه فى مخضب لحفصة ثم صببن عليه الماء حتى طفق يقول : « حسبكم ، حسبكم . ثم عصب رأسه وخرج الى النـاس فصلى بهم وخطبهم . وعاد النبى الى الدار وتمدد فى فراشه وارتفع صـوت بلال بالأذان ، ولم يستطع النبى الخروج فقال :

ـ مروا أبا بكر فليصل بالناس .

فلم تسرع عائشة باستجابة امر النبى ، لأنه لم يقع فى قلبها أن يحب الناس بعده رجلا قام مقامه ابدا ، ولأنها كانت ترى انه لن يقوم احد مقامه الا تشاءم الناس به ، فارادت أن يعدل ذلك رسول الله عن ابى بكر فقالت :

ـ ان ابا بكر رجل رقيق ، وانه متى يقوم مقامك لا يطيق .

ـ مروا ابا بكر يصلى بالناس .

ـ يا رسول الله ، ان ابا بكر رجل رقيق .

فغضب رسول الله وقال :

ـ مروا أبا بكر يصلى بالناس .

فانطلقت بريرة لتخبر بلالا ان رسول الله قد امر أن يؤم أبو بكر الناس .

والتفت النبي الى من عنده وقال :

ـ ابعثوا الى علي فادعوه .

وكأنما خشيت عائشة أن تكون دعوة النبي لعلي ليوصي له ، فقالت :

ـ لو بعثت الى أبي بكر .

وأسرعت حفصة وقالت :

ـ لو بعثت الى عمر .

واجتمع علي وابو بكر وعمر عند النبي ولكن رسول الله لم يقل لهم شيئا ذا بال ، بل صرفهم قائلا :

ـ انصرفوا ، ان تك لي حاجة ابعث اليكم .

فانصرفوا جميعا ولم يدر أحد لم طلب عليا أولا ، ترى هل بعث اليه ليوصي له فأفسدت ذلك عائشة ؟ أم بعث اليه ليراه قبل أن يقضي وقد كان أحب الناس اليه !

وثقل في وجعه حتى أغمي عليه ، فاجتمع اليه نساؤه وفاطمة وعلي والعباس ، وأسماء بنت عميس ، وقالت أسماء :

ـ ما وجعه هذا الا ذات الجنب فلدوه .

فلد ، فلما أفاق رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

ـ من فعل بي هذا ؟

ـ لدتك أسماء بنت عميس ، ظنت أن بك ذات الجنب .

ـ اعــوذ بالله ان يبليني بذات الجنب ، انا اكرم على الله من ذلك ، لا يبقى في البيت أحد الا لد الا عمي العباس .

ووضع النبى رأسه فى حجر عائشة ، وكان عنده قدح فيه ماء ، فكان يدخل يده فى القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول :

ـ اللهم أعنى على سكرة الموت ٠

ودخل عبد الرحمن بن أبى بكر ومعه سواك يستن به . فنظر اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت عائشة تعرف انه يحب السواك فقالت :

ـ آخذه لك ؟

فأشار برأسه أن نعم ٠

فتناولته وناولته اياه فاشتد عليه ، فقالت له :

ـ الينه لك ؟

فأشار برأسه أن نعم ٠

فضغطته ولينته . ثم أعطته رسول الله فاستن به وهو مستند الى صدرها وخفت حركة النبى ، وتمتم بصوت خافت خفيض :

ـ بل الرفيق الأعلى من الجنة ٠

ووجدت عائشة رسول الله يثقل فى حجرها . فذهبت تنظر فى وجهه ، فاذا نظره قد شخص ، لقد خير فاختـــار ولحق بالرفيق الأعلى ، فيا لعائشة . ويا للمصيبة الكبرى ، والرزء الفادح ، لقد مات النبى ، ومات الزوج ، ولما تتم العقد الثـــانى من عمـــرها ! فيا للنكسة العظمى ٠

ووضعت رأسه على وسادة وقامت تلتدم مع النســاء وتضرب وجهها . وخيم الحزن على يثرب فقــد قضى أعظم من أقلت الأرض . وأظلت السماء ٠

الفصل الثانى عشر

متنبى بنى حنيفة

ادعى مسيلمة النبوة ، فلم يصدقه من قومه خلق كثير ، فقد كان قميئا ، اصفر اللون ، لا هيبة له ولا يبعث مظهره على الاحترام ، ورأى النبى ان يبعث الى القوم من يفقهم فى الدين ويناوىء مسيلمة ، فبعث اليهم « نهارا الرجال » ، وانطلق نهار ، ورأى التفاف بعض الناس بمسيلمة ، فوسوست له نفسه ان يستغل هؤلاء الناس فيغترف من لذائذ الدنيا ، فانطلق الى مسيلمة واتفق معه ، وباع نفسه للشيطان ، وراح مبعوث محمد يدعى ان محمدا يقول ان مسيلمة قد اشترك فى الرسالة ، فدخل الناس فى دين مسيلمة ، وكان سرور اهل اليمامة عظيما فمنهم نبى ، ومن قريش نبى ، وبذلك تتساوى الرأسان ، ولن يرتفع رأس على آخر - وكان لمحمد قرآن ، وشاء مسيلمة ان يكون له قرآن ، فراح هو والرجال يضعان قرآنا كقرآن محمد وأخذ بنو حنيفة يقراون القرآن الجديد : « والمبذرات زرعا ، والحاصدات حصدا ، والذاريات قمحا ، والطاحنات طحنا ، والخابزات خبزا ، والثاردات ثردا ، واللاقمات لقما ، اهالة وسمنا ، لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم اهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعتز فاووه ، والباغى فناوئوه » واستفحل امر مسيلمة ووزيره ، فبعث اليهم ابو بكر عكرمة بن ابى جهل فهزم عكرمة ونكب ، وأرسل بذلك الى ابى بكر ، فكتب اليه ابو بكر :

« يا بن أم عكرمة لا أرينك ولا تراني على حالهــا ، لا ترجع فتوهن الناس ، امض على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفجة فقاتل معهما اهل عمان » .

ورأى ابو بكر ان يرمي اهل اليمامة بسـيف الله المســـلول ، فأمد خالدا وأمره أن ينطلق الى متنبي بني حنيفــة الذى استفحل أمره ، وعظم خطره . فخرج خالد وخرج عبد الرحمن بن أبي بكر معــه لمحاربة اهــل الردة ، خرج عبد الرحمــن وهو يمنى النفس بالنصر ورفع كلمة الله ، أو الاستشهاد في سبيل الله . وسار جيش خالد حتى ثنية اليمامة فوجد هناك سرية مجاعة بن مراوة كانت قد خرجت لثار ، وقد غلب القوم الكرى ، فاسرع جيش خالد والتف بالنيام ، ثم نبهوهم وقالوا لهم :

– من انتم ؟

– هذا مجاعة وهذه حنيفة .

فأوثقوهم وجاء خالد وقد ظن انهم جاءوا ليستقبلوه وليتقوه بحاجة فقال لهم :

– متى سمعتم بنا ؟

– ما شعرنا بك ، انما خرجنا لثار لنا فيمن حولنا من بني عامر وتميم .

فأمر بهم أن يقتلوا ، وبينما كان حكم خالد ينفذ فيهم ، التفت أحدهم الى خالد وقال :

– ان كنت تريد بأهل اليمامة غدا خيرا أو شرا فاستبق هذا .. وأشار الى مجاعة – ولا تقتله .

فقتلهم خالد وحبس مجاعة عنده كرهينة .

ووقف جيش خالد وجيش مسيلمة وجها لوجه ، وقد امتلأت الصدور حماسة . فالمسلمون يذبون عن دينهم وأهل اليمامة يدافعون عن حياضهم ونبيهم ، وراح كل يحض قومه ويهزهم باحسن ما فيهم ، وها هو ابن مسيلمة يتنقل بين القوم ويصيح : « يا بني حنيفة ! اليوم يوم الغيرة ان هزمتم تستردف النساء سبيات . وينكحن غير حظيات ، فقاتلوا عن احسابكم ، وامنعوا نساءكم » .

وقف عبد الرحمن ينتظر الاذن بالقتال ، وتزاحف الجيشان فشد عبد الرحمن ، ودارت رحى معركة رهيبة فلم يثبت المسلمون لجموع بني حنيفة وتقهقروا ، وزال خالد عن فسطاطه ، وساء عبد الرحمن وبعض ذوي الهمم العالية ان ينهزم المسلمون ، فعزموا على أن يبقوا في الميدان منتصبين حتى يحكم الله بينهم وبين الفجرة المرتدين ، وثارت الحمية فيهم ، فانطلق زيد بن الخطاب الى نهار الرجال . الفقيه المخادع الذي باع دينه بدنياه ، وعاجله بضربة فجعله كأمس الدابر ، وراح عبد الرحمن يلعب بسيفه ، وقد اطل منه المنون ، وخلصت اليه الجراح ، ولكن ذلك لم يثنه عن عزمه بل ظل يجاهد ، وهبت ريح أثارت الرمال في وجوه المسلمين ، فانطلق ناس الى زيد بن الخطاب يسألونه عما يفعلون . فقال لهم : « لا والله لا اتكلم اليوم حتى نهزمهم ، أو القى الله فأكلمه بحجتي ، غضوا ابصاركم ، وعضوا على أضراسكم ايها الناس ، واضربوا في عدوكم وامضوا قدما » .

واشتد المسلمون النكير ، وراح بنو حنيفة يسقطون حول مسيلمة قتلى ، فرأى خالد أن ينطلق الى مسيلمة لقتله فيضع

للمعركة الرهيبة جدا . فانقض عليه وهو يصيح : « وا محمداه »
وما ان صك صــوته آذان المســلمين ، حتى فارت الدماء في
عــروقهم . وأخذوا يطيحون برءوس المخدوعين في نبيهم . ورأى
مسيلمة ضغط المسلمين عليــه ، وطلب خالد له ، فدب الذعر في
نفسه ، وشاء الفرار ، فقال له من حوله : « أين ما كنت تعدنا ؟ » .
فأجابهم وهو يفر : « قاتلوا عن أحسابكم » . ولما كان لهم في نبيهم
أسوة ، فقد فروا مثله . ورأى محكم اليمـامة ظهور المسلمين ،
فوقف يقاتل عن الديار ويصـــيح : « يا معشر بني حنيفـــة الآن
تستحقب الكرائم غير رضيات ، وينكحن غير حظيات ، فما عندكم
من حسب فاخرجوه » . واستمر محكم بن الطفيـل يقاتل ، ولكن
سيوف المسلمين كانت تقصف قصـفا ، وأصـواتهم وهم يزأرون
« يا محمداه » تزلزل أركان المكان ، وتخلع قلوب الأعـداء ، وراح
عبد الرحمن بن أبي بكر يصـول ويجول ، وقد أطل من سيفه المنون ،
وصـاح محكم في قومه : « الى الحديقة .. الى الحديقة » . فدخل
القوم حديقة الرحمن ، وكانت لمسيلمة ، وكانت واسعة الارجاء ،
منيعة الجدران كأنها الحصن ، ووقف محكم يحمي قومه المتقهقرين ،
واستمر يقاتل أمام باب الحديقة ، فوضع عبد الرحمن بن أبي بكر
سـهما في قوســه ، وسـدده الى محكم فجاءه في نحره ، فسـقط
مجدلا ، وأغلق باب الحديقـة ، فما يفعل المسلمون ، أيحاصرونها
حتى يسـلم القـوم ؟ . لا . انهم لن يرضـــوا الا بالنصر الكامل
المبين ، فتسوروا الجدران ، وقاتلوا الأعـداء الذين يحمون باب
الحديقة حتى فتحوه ، فتدفق المســـلمون منـه كالبحر الزاخر ،

واحدث سيوفهم نقط الرقاب · وقتل مسيلمة ، وجللت ارض الحديقة بقتلى بنى حنيفة فصارت حديقة الموت والفناء ·

وانطلق عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر الى خالد وقالا له :

ـ ارتحل بنا وبالناس فانزل على الحصون ·

ـ دعانى ابث الخيول ، فالقط من ليس فى الحصون ، ثم أرى رأيى ·

فبث خالد الخيول فحووا ما وجدوا من مال ونساء وصبيان ، فضموا هذا الى المعسكر ، ونادى بالرحيل لينزل على الحصون . ولكن مجاعة أسيره قال له :

ـ انه والله ما جاء الا سرعان الناس ، وان الحصون لمملوءة رجالا ، فهل لك الى الصلح على ما ورائى ·

فصالحه خالد على كل شىء دون النفوس ·

فقال مجاعة .

ـ انطلق اليهم فاشاورهم ، وننظر فى هذا الأمر ثم ارجع اليك ··

ودخل مجاعة الحصون ، وليس فيها الا النساء والصبيان ومشيخة فانية ورجال ضعفى . فقال للنساء :

ـ البسن الحديد ثم أشرفن على الحصون ·

ففعلن فرأى خالد الرجال فيما يرى على الحصون وعليهم الحديد ، فعزم على ان يصالح مجاعة ، وعلى ان يعود بالنصر ، فقد قتل خلق كثير ممن كان معه ، وقد انهكت الباقين الحرب ، ثم رجع مجاعة ، واتى خالدا وقال :

ـ قد أبوا أن يجيبوا ما صنعت . وقد اشرف لك بعضهم نقضا علي . وهم مني براء .

واخيرا تم الصلح بين مجاعة وخالد ، ودخل خالد الحصون فلم يجد الا النساء والصبيان .

وعاد عبد الرحمن بن أبي بكر الى يثرب بعد ان قتل سبعة من صناديد بني حنيفة . وبعد ان نحر محكم اليمامة : عاد ليشترك في الجهاد ، وليعمل على نشر دين الله ، واقامة اركانه ، وتوطيد دعائمه .

الفصل الثالث عشر

طـــلاق

اندمل جرح عبد الله بن ابى بكر ، وتفتح قلبه لعاتكة زوجه ، زوجه ، فان فى عبد الله رقة آل ابى بكر فعشقها وهام بها وتدله حبا ، حتى اصبح لا يطيق النأى عنها ، فاذا ما خرج عنها لحاجة احس حنينا اليها وشوقا زائدا ، فهى نومه ونفسه ، وغذاء روحه ، فيسرع بالعودة اليها ليضمها الى صدره الملهوف ، وليتملى من حسنها الفتان ، ولينصت الى حديثها العذب الأخاذ ، ان صوتها ليمس اذنه فى رقة منعشة ، وان حسنها ليشيع فى نفسه غبطة ، وانه ليهيم فى اجواء من السعادة اذا ما نظر فى عينيها الساحرتين الاخاذتين ، فيا لعبد الله قد شفه الوجد وانساه الحب ان يخرج كما يخرج الناس ، فمكث فى البيت يرشف الرضاب من فم عاتكة ، لا يحس ان هناك دنيا غير دنياه ، انه لسعيد ، فما له يفكر فيما سواه !

وبادلت عاتكة عبد الله حبا بحب ، واخلاصا باخلاص ، وعلمت مكانها من نفسه ، فغلبته فى كثير من أمره ، فصار الرأى لها ، والتدبير تدبيرها ، ولم تكتف بانها سلبته قلبه ، بل راحت تسلبه لبه وفكره ، ففنى عبد الله فيها ، واصبح اتبع لها من ظلها ، فساء ذلك ابا بكر ، انه ليرى ابنه يتلاشى فى زوجه ، ويقبع فى داره لا يخرج للجهاد ، فعزم على ان يعاتبه لعله يرعوى ، ويثوب الى

رشده . وتقابل الأب والابن وتعاتبا . وانطلق عبد الله وقد وعد اباه ان يختلف الى الاسواق كما كان يختلف . وان يسير الى المسجد كما كان يسير . وما ان بلغ الدار . وما ان تطلع الى عاتكة حتى نسى كل شيء . نسى ما دار بينه وبين ابيه . بل نسى اباه . بل نسى نفسه . ولم يعد يذكر الا عاتكة حبيبة الفؤاد . ومكث عبد الله معها فلم يختلف الى الأسواق . ولم يبادر الى الغزوات . ولم ينطلق الى المسجد . بل انطلق يحلق فى عوالم الحب والخيال . وانتظر ابو بكر لعل حب ابنه لزوجه يبلى على الأيام . ولعل جذوته تخبو . ولكن ما كان كر الايام الا ليزيد هذا الحب لهيبا . وما كان عتاب أبى بكر الا ليؤجج ناره فى صدره . ان عبد الله ليحاول مخلصا ان يبرأ من هذا الحب الذى جر عليه عتاب ابيه وتقريعه . ولكن متى كان للمرء سلطان على الفؤاد ! قد حاول عبد الله ان يكبح جماح قلبه . ولكنه اخفق . وانطلق قلبه بلا جماح على هواه . وخرج ابو بكر فى يوم الجمعة للصلاة فمر على عبد الله وهو يناغى عاتكة فى علية له . فلم يكلمه بل سار فى طريقه . فما زال أمام عبد الله فسحة من الوقت قبل الصلاة . واذن المؤذن وصلى الناس . وعاد أبو بكر بعد ان انقضت الصلاة . فألفى عبد الله لا زال يناغى عاتكة ويلاعبها . فغضب ابو بكر اشد الغضب . ونادى ابنه وقال له :

ـ يا عبد الله أجمعت ؟

فقال عبد الله فى ارتباك :

ـ اوصلى الناس ؟

فقال ابو بكر فى حدة :

ـ نعم ٠

ثم قال لابنه فى حزم :

ـ لقد شغلتك عائشة عن المعاش والتجارة ، وقد أهلكتك عن فرائض الصلاة . طلقها ٠

انصرف أبو بكر ، وبقى عبد الله شارد اللب ، مطأطىء الرأس ، ثم صار يجر رجليه جرا ، وقد ارتسم على وجهه الألم الشديد ، يكاد قلبه ينفطر ، وكبده تتصدع ، ان نفسه لتدمى ، وان كلمة أبيه الأخيرة لتدوى فى أذنيه فتزلزل كيانه ، ويا لها من كلمة قوضت هناءه .. طلقها ، هذا ما هتف به الشيخ ، ولخروج روحه أهون عليه من خروج عائشة من بين يديه . لطالما وعد اباه ان يرعوى فى حبه ، ولكن حبه قد غلبه ، فما من الفراق بد ، ليته مات يوم الطائف يوم رمى بسهم . ليته قضى قبل ان يحل به هذا العذاب ، لقد كان وقع السهم يومئذاك اخف من وقع ما سمعه اليوم على نفسه ، أصاب السهم جسمه فأدماه ، وأصابت الكلمة روحه وما لجرح الروح من دواء ٠

واستمر عبد الله باسر الوجه ، حزين الفؤاد ، حتى اقبلت عليه عائشة . فحاول أن يخفى عنها ما الم به ولكن هيهات ! فما كان المحب بقادر على ان يخفى ما به عمن يحب ، وما كان المحبوب بحاجة الى ان يفصح اللسان عما يخفى المحب ، فان روحيهما لتتناجيان وان قصر البيان ، وتكلف عبد الله الهدوء والاطمئنان ، وفتح لها ذراعيه وقد ارتسم على وجهه الابتسام ، فلم ترتم فى احضانه كما اعتادت ان تفعل ، ولم تقدم له شفتيها ، ولم ترن اليه فى حنان ، بل هتفت فى قلق :

ـ ما هناك ؟

ـ لا شيء ٠

ـ بل هناك أشياء ٠

ـ لا شيء يا عاتكة ٠

ـ وحبي يا عبد الله ، أصدقني القول ٠

فجرت دموعه على خديه ، ولم ينبس ، وأرخى ذراعيه المعدودتين واطرق ، فاسرعت اليه وضمته الى صدرها ، وقالت في لهفة :

ـ أتبكي ! ما هناك ؟

ـ انه الفراق ٠

فاتسعت حدقتا عاتكة ، واحست جفافا في حلقها ، ولم تستطع ان تكبت عواطفها فانخرطت في البكاء ، وراحت تنشج ، واستمر عبد الله في بكائه ، والتصق الصدران ، وامتزجت الدموع واستمر النحيب والنشيج ، ثم تجلد عبد الله وابعدها عنه في رفق وخرج لا يلوى على شيء ، وقد هصر الحزن نفسه ، فيا له من فراق ٠

راح عبد الله يهيم على وجهه ، وصورة عاتكة تتمثل له انى صرف البصر ، انه ليهفو اليها ، ولكن عز الوصال ، وتقطعت الأسباب وأصبحت عاتكة ذكرى ، وصارت له خيالا بعد ان كانت شيئا ينال ٠ وفي ذات ليلة حاول عبد الله النوم ، ولكن لم تغمض له عين ، فصعد الى سطح له يرقب النجوم التي شهدت حبه وهناءه ، لتشهدها سهده وشقاءه ، وتلفت عبد الله فعادت اليه ذكريات سعادته تتزاحم في رأسه ، فهاجت نفسه وطفق يهتف :

أعاتك لا أنساك ما ذر شارد ... وما ناح قمرى الحمام المطوق
أعاتك قلبى كل يوم وليلة ... لديك بما يخفى النفوس معلق
لها خلق جزل ورأى ومنطق ... وخلق مصون فى حياء ومصدق
فلم أر مثلى طلق اليوم مثلها ... ولا مثلها فى غير شىء تطلق

وكان ابو بكر فى سطح له يصلى ، فصك أذنيه صوت ابنه الشاكى ، فهز أوتار قلبه ، ورق له ولم يستطع أن يصبر على عذاب ابنه فاشرف عليه وهتف :

ـ يا عبد الله راجع عاتكة ٠

فأحس عبد الله نشوة الغريق غب انتشاله من اليم وصاح :

ـ أشهدك أنى راجعتها ٠

ولمحه ابو بكر وهو يهرول فى غبطة وانشراح ، ثم يشرف على غلامه ايمن ويقول فى فرح:

ـ يا ايمن انت حر لوجه الله تعالى ، اشهدك انى راجعت عاتكة ٠

فاطمأنت نفس الشيخ ، واخذ عبد الله يجرى الى مؤخرة الدار حيث اعتكفت عاتكة وهو يقول :

أعاتك قد طلقت فى غير ريبة ... وروجعت للأمر الذى هو كائن
كذلك أمر الله غاد ورائح ... على الناس فيه ألفة وتباين
وما زال قلبى للتفرق طائرا ... وقلبى لما قد قرب الله ساكن
ليهنك أنى لا أرى فيك سخطة ... وأنك قد تمت عليك المحاسن
فانك ممن زين الله وجهه ... وليس لوجه زانه الله شائن

الفصــل الرابع عشر

ال الزبير

تاهب الزبير بن العوام للخروج للحاق بالمسلمين الذين يقاتلون الروم فى الشام . وتجهـزت أسماء للخروج مع زوجهـا ، ووقف عبد الله ابنهما مسرورا . وكان سرور الصبى عظيمـا ، فسيشاهد قتال الروم عن كثب . كان عبد الله فى العاشرة من عمره لم يشتد ساعده بعد . ولكن ما سـمعه طوال السـنين التي مرت به من احداث جسـام جعـله يتطلع الى المجد ، انه لم يسمع مذ ولد الا قعقعة السلاح . ولم ير الا ابطالا مردة ، أو شـهداء يمشـون على الأرض . ولد عبد الله بين ناس يحبون الموت حبهم للحياة فهانت عليه نفسه ولم يعد يعرف الخوف ، وحان أوان الخروج . فخرجت بنت الصديق وصـهر الصديق وحفيـد الصـديق لقتال الروم مع المقاتلين . وبعـث أبو بكر الى قواد الشـام أن اجتمعوا فتكونوا عسكرا واحدا ، والقوا زحوف المشركين بزحف المسـلمين ، فانكم أعوان الله ، والله ناصر من نصره ، وخاذل من كفـره . ولن يؤتى مثلكم من قلة ، وانمـا يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة الاف اذا أوتـوا من تلقـاء الذنوب ، فاحترسـوا من الذنوب ، واجتمعوا باليرموك متساندين ، وليصل كل رجل منكم بأصحابه .

وتحـرك جرح عبـد الله بن ابى بكر الذى أصـيب به يوم الطائف ، فلزم الدار ، وراحت عاتكة تعمـل جاهدة على تمريضه

ولكن ضاعت جهودها سدى فقد ثقلت عليه وطأة المرض ، ومرت الأيام فكانت حالته تزداد سوءا فما كان الزمن حليفه ، وما كانت عجلته تدور لتسرع ببرئه ، بل كانت تدور لتسرع بيوم طيه ، ودنا يوم الرحيل فتطلع الى عاتكة ، وحاول أن يبش لها ولكن خانته ملامحه ، فظل وجهه هزيلا شاحبا لا يوحى الا بقرب الفراق ، فغامت عينا عاتكة بالدمع ، فأشاحت بوجهها حتى لا يرى عبراتها المترقرقة فى مقلتيها ، وتذكر عبد الله انه كان قد ابتاع الحلة التى أرادوا دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها بتسعة دنانير ليكفن فيها فطلبها ، فجاءوا له بها ، وحضرته الوفاة فنظر الى الحلة وقال :

ـ لا تكفونى فيها ، فلو كان فيها خير كفن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

وانطلقت روح عبد الله من سجنها لتهيم طليقة فى السموات ، واحست عاتكة حزنا ثقيلا ، ولوعة وأسى ، وراحت تبكى حتى لكاد قلبها ينفطر وأنشأت تقول :

فلله عينا من رأى مثله فتى أكر وأحمى فى الهياج وأصبرا
اذا شرعت فيه الأسنة خاضها الى الموت حتى يترك الرمح أحمرا
فاليت لا تنفك عينى سخينة عليك ولا ينفك جلدى أغبرا
مدى الدهر ما غنت حمامة أيكة وما طرد الليل الصباح المنورا

وجهز الجسد الفانى ، ووقف أبو بكر يصلى عليه فى خشوع ، وفى القلب لوعة وفى النفس حسرة ، ثم حمل لبقبر ، وانطلق الناس به حتى بلغوا المقابر فنزل فى قبره عمر وطلحة وعبد الرحمن أخوه ، وغيب عبد الله فى التراب ، فانقضى كما ينقضى اللحن الجميل ٠

وتوافى المسلمون باليرموك ، وأقبل خالد بن الوليد فى مدد من العراق فوافى خالد المسلمين وهم متضايقون بمدد الروم فلما رأى الناس خالدا ومن معه سار فى صدورهم الأمل الدفىء ، وشد ذلك من أزرهم ، فهجموا على اعدائهم ، وراحوا يوقعون فى صفوفهم الرعب ، ويشتتون شملهم ، فاضطر الروم تحت ضغط هجمات المسلمين العنيفة ان يتقهقروا الى خنادقهم وبقوا بها شهرا ، واخذ القسيسون والشمامسة والرهبان يحضونهم على القتال ، فثارت حميتهم ، وخرجوا لقتال المسلمين .

وقال خالد للقواد فيما قال :

ـ هلموا فان هؤلاء قد تهيئوا ، وهذا يوم له ما بعده ، ان رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وان هزمونا لم نفلح بعدها ، فهلموا فلنتعاور الامارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر بعد غد يتأمر كلكم ، ودعونى اليكم اليوم .

فوافقوا جميعا وامروا خالدا وهم يحسبون ان الامر يطول ، وتأهب المسلمون ، ووقف الزبير وهو افضل صحابى فى الجيش ينتظر الاذن بالهجوم ، وكان عبد الله ابنه على فرس واحدة ، لقد عزم الزبير على ان يخوض به المعركة حتى يألف الطعن والنزال .

ووقف النساء خلف الجيش ومعهن عدد من السيوف ، وكانت أسماء هناك ، فى يدها سيف مشهور ، فيا لعبد الله ، انه يشترك فى معركة هائلة يخوض غمارها ابواه ، واتجه خالد الى النساء ، وقال لهن :

ـ من رأيتموه موليا فاقتلنه .

ثم قفل راجعا الى مكانه ، ونشب القتال ، والتحم الناس وتطارد الفرسان ، واجتمع الى الزبير جماعة من الأبطال فقالوا :

ـ الا تحمل فنحمل معك ؟

فانطلق الزبير كالشهاب . وانطلق الابطال معه . فلما واجهوا صفوف الروم احجموا . واقدم هو وعبد الله امامه على الفرس ، واخذ الزبير يلعب برمحه وسيفه . ويقصف فى الأعداء قصفا شديدا . وعبد الله ينظر الى ما يفعل أبوه وقد بان فى وجهه الدهش والاعجاب . انه ليشق الصف شقا . واستمر الزبير يصول ويجول ثم عاد الى مكانه . فجاءه جماعة من الأبطال وقالوا :

ـ احمل فنحمل معك .

ـ انكم لا تثبتون .

ـ سنثبت .

فحمل الزبير وحملوا . فلما واجهوا صفوف الأعداء احجموا واقدم . واستمرت رحى المعركة دائرة . وعبد الله بن الزبير ينظر الى الروم الذين يشدون على المسلمين لازالتهم . ويعجب من هؤلاء المقترنين الذين يحاربون وهم مسلسلون ومربطون . وهجم الروم هجمة صادقة . فازالوا جند خالد . وهم بعض المسلمين بالفرار . فاخذ النساء يضربن من انهزم من المسلمين بالخشب والحجارة . وصاحت اسماء فيمن صاح منهن :

ـ اين تذهبون وتدعوننا للعلوج .

وراحت خولة بنت ثعلب تنشد :

يا هاربا عن نسوة نقيات فعن قليل ما ترى سبيات

ولا حصيات ولا رضيات

فخجل الرجال من الفرار . وعادوا الى المعركة وقد صمموا على الموت او النصر . ونادى عكرمة بن ابى جهل أمام فسطاط خالد

ـ من يبايع على الموت ؟

فبايعه اربعمائة من وجوه المسلمين ، وفرسانهم ، فقاتلوا امام فسطاط خالد قتال الابطال الصناديد ، وثبتوا للأعداء وراحوا يسقطون مجدلين الواحد اثر الآخر ، ولما راى المسلمون ثبات اخوانهم ، ثارت حماستهم فانقضوا على الأعداء انقضاض النسور الكواسر فازالوهم ، ورأى خالد انهزام القوم فركبهم واقتفى اثرهم ، واقتحم عليهم الخندق ، ورأى النساء انهزام الروم فانطلقن للاشتراك فى المعركة ، وطفقت أسماء تضرب فى رقاب المقترنين الذين هووا فى الخندق ، وأخذ الزبير يشدد التكبير ، وشارك عبد الله القوم فى جهادهم ، انه لم يحمل سيفا ، ولم يطعن احدا ، ولكنه كان تحت رحمة السيوف المتأرجحة فوق راسه ، والسهام المنطلقة والرماح المسددة الى الصدور : ضربة واحدة تسدد اليه ، أو سهم يطيش فيقضى الغلام قبل أن يشتد ساعده ، وقبل أن يخوض غمار المعارك التى يتوق اليها .

وبينما كانت بنت الصديق وصهر الصديق ، وحفيد الصديق منهمكين فى قتال الروم ، كان البريد يغذ فى السير الى مكان المعركة يحمل موت الصديق .

الفصل الخامس عشر

على فراش الموت

كان الجو باردا ، فدخل الناس دورهم يحتمون فيها من قرصات البرد الزمهرير ، ودخل ابو بكر يغتسل ، فخرج بعد ان اغتسل ينتفض ، واحس رعشة تسرى فى جسمه ، فشاء ان يستكن فى فراشه ليجلب لجسمه الدفء ، وليقضى على القشعريرة التى راحت تمشى فى اوصاله ، وما ان اندس فى فراشه حتى شعر بدفء لذيذ ، ثم اخذت حرارته فى الارتفاع حتى احس كان رأسه يكاد ينفجر ، لقد حم ابو بكر ، وطفقت الحمى فى الزيادة ، حتى لم يعد بقادر على الخروج ليصلى بالناس ، فأمر عمر أن يصلى بهم .

وأسرعت عائشة الى أبيها المريض لتمرضه ، وأقبلت عليه زوجه أسماء بنت عميس ، ونظر أبو بكر الى ابنته أم المؤمنين طويلا ثم قال :

ــ يا بنية ، ان أحب الناس غنى الى بعدى أنت ، وان أعز الناس فقرا على بعدى أنت ، وانى كنت نحلتك أرضى التى تعلمين ، وانا أحب أن ترديها على فيكون ذلك قسمة بين ولدى على كتاب الله ، فانما هو مال الوارث ، وهما اخواك واختاك .

فظهرت الدهشة فى وجه عائشة ، فما لها الا أخت واحدة .

هى اسماء التى انطلقت الى اليرموك مع زوجها . فما بال ابوه يقول اختاك ٠

فقالت فى عجب :

ـ اختاى ؟

ـ ذو بطن ابنة خارجة فانى اظنها جارية ٠

كانت حبيبة بنت خارجة زوجه حاملا . فلم يشأ أن يهمل ولده الذى لا زال فى عالم الغيب . بل راح يفكر فيه ويعمل على احقاق حقه قبل أن يراه . واشتد المرض عليه فنظر الى زوجه اسماء وقال :

ـ غسلينى ٠

ـ لا أطيق ذلك ٠

ـ يعينك عبد الرحمن من ابى بكر يصب الماء ٠

والتفت الى عائشة وقال :

ـ فى كم كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

ـ فى ثلاثة اثواب ٠

ـ اغسلوا ثوبى هذين ـ وكانا ممشقين ـ وابتاعوا لى ثوبا اخر ٠

ـ يا ابة انا موسرون ٠

ـ اى بنية ، الحى أحق بالجديد من الميت . انما هما للمهلة والصديد ٠

وابتدات الشمس فى الغروب . وابتدا ابو بكر فى الغروب ، فاخذ يعالج سكرات الموت . وفتح عينيه وقال بصوت خفيض :

ـ يا عائشة ادفنونى بجوار رسول الله ٠

ثم اسبل عينيه . واخذت روحه تحشرج فى صدره ، فقالت عائشة :

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى

اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فتقلص وجه ابى بكر ، وبان فيه الغضب وقال :

ـ ليس كذلك يا ام المؤمنين ، ولكن « وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد » .

واشتد الموت عليه فغمغم :

وكل ذى ابل موروث وكل ذى سلب مسلوب

وكل ذى غيبة يئوب وغائب الموت لا يئوب

وراح يجود بانفاسه الأخيرة ، وكان آخر ما نطق به

ـ رب ، توفنى مسلما والحقنى بالصالحين .

وفاضت روح ابى بكر فارتجت المدينة لوفاته . وتم تجهيزه ليلا ، ثم حفر له لحد بجوار لحد النبى فى بيت عائشة ، ودخل قبره عمر وعثمان وطلحة وعبد الرحمن بن ابى بكر ، ولما قبر سمع عمر نواحا . فقد اقامت عليه عائشة النوح ، فاحس عمر انقباضا ، وانطلق الى دار عائشة ، ونهى النساء النائحات عن البكاء ، فابين أن ينتهين ، واستمررن فى نوحهن ، فهز ذلك عمر وزاد فى حزنه فتحرك غضبه ، فالتفت الى هشام بن الوليد وقال له

ـ ادخل فاخرج الى ابنة ابى قحافة اخت ابى بكر .

وصك ذلك اذن عائشة فقالت من وراء الباب لهشام

ـ انى احرج عليك بيتى .

فاحجم هشام ، ولكن عمر قال لهشام فى حدة :

ـ ادخل فقد اذنت لك .

فدخل هشام ، فأخرج أم فروة أخت أبي بكر الى عمر ، فعلاها بالدرة ، فضربها ضربات ، فتفرق النوح حين سمعن ذلك ، وخرجت عائشة ، ووقفت على قبر أبيها فبكت ، ثم قالت :

ـ نضر الله يا أبت وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فقد كنت للدنيا مذلا بادبارك عنها ، وللآخرة معزا باقبالك عليها ، ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك ، وأكبر الأحداث بعده فقدك ، ان كتاب الله عز وجل ليعدنا بالصبر عنك حسن العوض ، وانا منتجزة من الله موعده فيك بالصبر عنك ، ومستعينة كثرة الاستغفار لك ، فسلم الله عليك ، توديع غير قالية لحياتك ، ولا زارية على القضاء فيك » .

ودخلت عائشة مطأطئة الرأس ، حزينة الفؤاد ، فقد ولى الوالد الحنون بعد ان تركها الزوج الحبيب .

الفصل السادس عشر

بعد الصديق

مات أبو بكر وقد خلف وراءه أسماء بنت عميس وابنها محمد ، وحبيبة بنت خارجة وهى حامل ، وابنتيه عائشة واسماء وابنه الاكبر عبد الرحمن . فأما أسماء فقد أخذت تعنى بابنها محمد مدة حتى تزوجها على بن أبى طالب فاحتضن محمد بن ابى بكر وكان ابن ثلاث سنوات فشب محمد فى بيت على . واشتد ساعده وهو لا يعرف الا عليا . وقد كان حب على له شديدا . فراح يرعاه كما يرعى ولديه الحسن والحسين . فتعلق محمد بعلى . وزاد تعلقه به على الايام ، فقد راى عن كثب عظمة على ، فآمن بها ، واخذ بعد نفسه منذ تفتحت عيناه ليفنى فى سبيلها • وأما حبيبة فقد وضعت جارية ، وهى ام كلثوم ، وجعلت ترعاها حتى نمت قليلا فضمتها أختها عائشة اليها فترعرعت فى بيتها مدللة معززة مكرمة ، واما عائشة فقدر لها عمر عطاءها فكان ١٢٫٠٠٠ درهم لكانتها ومكانة أبيها من الرسول . فلم تبق من هذا العطاء شيئا ، بل كانت كالريح المرسلة : لا ترد سائلا . ولا ترى ملهوفا الا مدت اليه يدا . ولكن هل تقنع بهذا التسامى ، وتقر فى بيتها ؟ • وأما أسماء بنت أبى بكر فقد كانت فى كنف زوجها الزبير . وقد أنجبت منه عبد الله وعروة ، وكانت تشارك الزبير فى تنشئة عبد الله ليكون اهلا لما قد يضطلع

به من أعمال . انها لتراه بعين الام كفئا لاعظم المهام · وانها لتراه ببصيرتها النفاذة شبلا قويا فهو ابن الزبير ، وحفيد الصديق . فراحت تزكى فيه روح العزة . لعل الايام تحقق ما يتخايل للأم من ان لأن · اما عبد الرحمن فما انتهى من قبر ابيه حتى امر ازواجه ان يتاهبن للخروج معه ليشارك اخوانه فى الجهاد ·

★ ★ ★

حزنت عاتكة على زوجها عبد الله بن ابى بكر حزنا شديدا . وظل الحزن مجللا على قلبها ، حائلا بينه وبين السرور ، ولكن لما كان الحزن يبلى كما يبلى الثوب . فقد تهتك عن قلب عاتكة ما كان يغلفه من حزن . فجعل ينبض قويا بالحياة . ويلتمس ما ينعشه ويرويه . فما ارسل اليها عمر بن الخطاب يطلب الزواج منها حتى قبلت · وأولم عمر ليبنى بها . فراح عبد الرحمن يفكر فى عاتكة وزواجها من عمر فأحس حزنا . فقد كان اخوه عبد الله يحب عاتكة . وقد عاهدت عاتكة نفسها على الا تتزوج بعده . ترى أنسيت عهدها ؟ ان عبد الرحمن ليحس رغبة فى الانطلاق الى عاتكة ليذكرها بقولها غب موت أخيه ، وان هذه الرغبة لتجيش فى صدره حتى ليضيق بها ويود أن ينفسها عنه . ولكن ما فى زواج عاتكة من عمر . الم يتزوج هو قريبة ابنة أبى أمية المخزومى بعد ان فارقها عمر فى الهدنة ؟ بلى تزوجها ، وما فى ذلك شيء . فقد فارقها عمر وهو لها كاره . اما زواج عمر من عاتكة فانه يحس له لدغا فى نفسه . ان اخاه مات عنها وهو متيم صب ، وأنها راحت تعلن على الملا تعلقها به · وعظم مصيبتها فيه . وانها لن تسلوه . ولن تتخذ بعده حليلا · فما بال عاتكة نسيت اخاه هكذا سريعا . ولم يطق

عبد الرحمن صبرا فانطلق الى بيت عمر ليفرج عن صدره بعض ما يكربه . وقابل عمر وقال له :

ـ يا أمير المؤمنين • أتأذن لى ان ادخل راسى على عاتكة ؟

قال عمر : نعم •

ودخل عمر على عاتكة وقال لها : استترى •

واستترت عاتكة وتقدمت . وقد حسبت أن عبد الرحمن قد قدم ليهنئها على زواجها من امير المؤمنين . ولكن عبد الرحمن ادخل راسه وقال :

واليت لا تنفك عينى قريرة   عليك ولا ينفك جلدى اصفرا

فيا لعبد الرحمن لقد طعن عاتكة فى الصميم . ونكا جرحها الذى كاد أن يندمل . فنشجت نشيجا عاليا . وجعلت الأبيات التى قالتها فى عبد الله تدوى فى اذنيها . فكأنما شواظ من نار تصب فيهما . فانخرطت فى البكاء . واحست كأن سكينا تقطع احشاءها .

والتفت عمر الى عبد الرحمن وقال له عاتبا :

ـ ما اردت الى هذا ! كل النساء يفعلن هذا ! غفر الله لك •

فانطلق عبد الرحمن لا يلوى على شىء •

الفصل السابع عشر

الوصـــال

جلس عبد الرحمن ونفر من اصحابه يتحدثون قبل ان ينطلق الى الشام . واقبلت اعرابية تمشي على استحياء حتى وقفت عند عبد الرحمن بن ابي بكر . فنظر اليها فقالت :

– انى أتيت من أرض شاسـعة . تهبطني هابطـة . وترفعني رافعة . فى بوادر برين لحمى . وهضن عظمى . وتركتنى والهة قد ضاق بى البلد . بعد الاهل والولد . وكثرة من العـدد . لا قرابة تؤوينى . ولا عشيرة تحمينى . فسالت احياء العرب : من المرتجى سيبه . المأمون غيبه . الكثير نائله . المكفي سائله . فدللت عليك وانا امراة من هوازن فقدت الولد والوالد . فاصـنع فى امرى واحدة من ثلاث :

اما ان تحسن صفدى (عطائى) . واما أن تقيم أودى . واما أن تردنى الى بلدى .

فتحركت رقة آل ابى بكر فى عبد الرحمن . كأنما المرأة كانت تلعب بأوتار قلبه فهزته . وأحس الشفقة تملأ نفسه فقال :

– بل أجمعهن لك .

وقام عبد الرحمن معهـا ليحسـن عطاءها . وليقيم أودها . وليردها الى بلدها . ولما خرجت المرأة شاكرة . حمل عبد الرحمن أهله وانطلق الى الشام ليشترك مع اخوانه فى الجهاد .

وخرج عبد الرحمن الى الشام ، وعادت به الذكرى الى يوم خرج اول ما خرج اليهـا فى تجارة ابيه ، فخفق قلبـه للذكرى . وملأت صورة ليلى ابنة الجودى نفسه . واخذ طيفهـا يرافقه فى رحلته ، ان عبد الرحمن ليحبها من كل قلبه . وان مر السنين لم يطفىء ذلك الحب ، ولم يضـعف جذوته ، بل قـواه الحرمان ، وضخمه الخيال . فلكم عاشت ليلى فى مخيلة عبد الرحمن . ولكم تماثلت له في شكول والوان ، لقد تزوج عبد الرحمن فلم تستطع واحدة من ازواجه ان تنسيه ليلى ، لانه كان ممن يتعشقون السبح فى الخيال . فما اكثر ما كانت روحه تهيم لتتصل بروحها . ولقـد كان يشعر اثناء ذلك بنشوة لا يحسها اذا اتصلت بينه وبين ازواجه الأسباب ، فظلت لذلك ذكراها عالقة فى الفؤاد ، انه لا يذكر ما كان من أزواجه بالامس القريب . ولكنه لا زال يذكر يوم وقعت عينـاه عليها اول ما وقعت . وكانت على طنفسة لها وحولهـا ولائدها ، فكأنما كانت قمرا يحف به النجوم . وانه ليحس الآن نفس الشعور الذى احسه يومذاك على طول العهد . وعلى الرغم من كر السنين ، وان قلبه ليخفق قويا لذكراها . كما خفق قويا يوم رؤياها . كون عبد الرحمـن من الرقة والحب ، فوجـد فى ليـلى غـذاء لروحه الهفهافة الشفافة .

انطلق عبد الرحمن الى الشام وهو يمنى النفس بالوصال . ولقد كان الوصـال ضربا من المحال ايام أن وقعت عينـاه عليهـا أول ما وقعت : فقد كان اعرابيا مغمورا ، وكانت هى ابنة سـيد عظيم الجاه ، ولو كان لقلبه عقل . ما خفق بحبهـا ، وما تعـلق بالسماء . ولكن الآن فما أيسر الوصال : انهم ليغزون الشـام ، وعما قريب تصبح ملك يمينهم . وسـتقع ليلى فى ايديهم . ولقـد

علم أمير المؤمنين عمر ما يقاسيه عبد الرحمن من وجد ، فأمر أن ينفل ليلى اذا ما وقعت فى السبايا ·

انطلق عبد الرحمن وصورة ليلى تتماثل له حيثما صرف البصر ، والأمل البسام يتخايل له ، والاماني العذاب تملأ نفسه لقد سيطر حبه على حواسه جميعا ، فكان يرى كل شيء باسما ويحس للأصوات رقة فى اذنيه ، فقد كانت مرآة نفسه صافية فراحت تعكس كل شيء صافيا ، ولاحت له الشام فهزته النشوة فزجر راحلته وود لو انها اسرعت كما اسرعت دقات قلبه ، أو لو ان حرارة قلبه انتقلت الى راحلته ، اذن لطارت على جناح الحب والهيام ·

ولحق عبد الرحمن باخوانه المسلمين ، وانضم الى الجيوش التى طفقت تنتقل من ظفر الى ظفر ، حتى كاد ملك الشام يطوى فاسرع عبد الرحمن فيمن أسرع الى قصر الجودى ، كانوا يلتمسون الأسلاب ، وكان يلتمس حبيبة الفؤاد ، وجعل الناس يحملون كل شيء ، وترك عبد الرحمن كل شيء ، وراح يجوس خلال القصر ينقب عمن سلبته قلبه ، واحتلت خياله تلك السنين الطوال · وابتدأ عبد الرحمن يحس قلقا ، فقد بحث عمن يهوى هنا وهناك فلم تقع العين عليها ، ترى هل غادرت القصر وانطلقت الى حيث لا يعلم ، وما فكر فى هذا حتى انقبض صدره ، وظللت نفسه سحابة من الكآبة والحزن ، فقد انهارت الآمال ، وتبددت الاحلام ·

واقفر القصر من الناس ، ولم يبق الا عبد الرحمن ، فكأنما أنساه الحزن نفسه ، أو كأنما التصقت روحه بالمكان الذى كانت تملأه ليلى ، وكأنما شاء الكون أن يشاركه حزنه فأرخى ستائره السود فحجب كل شيء ولف الظلام المكان ، فراح عبد الرحمن

يضرب فى الأرض . مطأطىء الرأس . شارد اللب منقبض الصدر . حزين القلب . منكسر النفس . ودخل عبد الرحمن ليهجع ولكن لم تغمض له عين . وانقضى الليل كأسوأ ما يكون ليل . ثم اصبح الصباح فخرج عبد الرحمن وانطلق الى فسطاط خالد . فألفى خالدا يقابله وقد انفرجت اسارير وجهه . والتمعت عيناه سرورا . وكانت كل جوارحه تنطق بانها هناك . فاضطرب عبد الرحمن وخفق قلبه . وظهرت اللهفة فى وجهه . ولم ينطق لسانه ولكن استفسرت ملامح وجهه وسألت : أين ؟ . وغاب خالد قليلا وترك عبد الرحمن نهبا لأفكاره . معلقا بين الرجاء واليأس . وارهفت حواس عبد الرحمن جميعا . حتى كان يسمع للنسيم السارى صوتا فى اذنيه . واقبل خالد فاتسعت حدقتا عبد الرحمن . ودخلت فى اثر خالد فتاة حلوة . فانفرجت شفتا عبد الرحمن وفتح فاه . واشتد وجيب قلبه . واضطرب نفسه . انها ليلى على قيد خطوات منه . ودفعها خالد اليه . فانطلق بها وهو لا يدرى أعلى الأرض يسير أم بأجنحة يطير !

حدب عبد الرحمن على ليلى اشد الحدب . فأنساها ما نزل بها من كرب . وما نالها من هوان . واطمأنت اليه فجعلت تترع معه كئوس الغرام . وجعل يضمها اليه لعله يطفىء نار الحب التى تتلظى فى حنايا الضلوع . وحملها عبد الرحمن وقفل عائدا الى المدينة وهام بها حبا . فلم يعد يدور على نسائه . بل راح يمضى عندها طول الليل وعامة النهار . فاحست ازواجه غيرة . وخرجن الى عائشة يشكون ما أصابهن من اهمال . ويلتمسن منها معاتبته . فخرجت عائشة لتعاتب عبد الرحمن وقد نسيت أنها قد ضاقت بفاطمة لما مشت الى النبى صلى الله عليه وسلم لتقول له : « ان

ازواجك يسألنك العدل فى بنت أبى قحافة » . فانطلقت حتى دخلت على اخيها وكلمته فى امر ليلى وأزواجه . فقال عبد الرحمن

ـ والله كأنى أرشف من ثناياها حب الرمان .

انصرفت عائشة . فقام عبد الرحمن الى ليلى ليضمها الى صدره ، وليرشف قبلات معسولات ، وليهيم معها فى سماء الصبابة والهيام .

الفصل الثامن عشر

للأتسـاب اباء

احتضنت عائشة اختها ام كلثوم فترعرعت فى كنف ام المؤمنين فى خفض من العيش ، وغمرتها بالحنان والعطف فنشـأت لينـة رقيقة • وكانت أم كلثوم فتاة صغيرة حلوة ، ورثت عن ابيها رقة بنى تيم ، وورثت عن أمها حبيبة بنت خارجة لبونة اهل الحضر ، فجاءت لينـة حلوة عذبة ، وما كادت تشب عن الطوق حتى بعث امـير المؤمنين عمر الى عائشـة يطلب تزويجه من ام كلثوم بنت صديقه الحميم ، فطلبت من السفير ان يمهلهـا حتى تستطلع رأى الصـغيرة • ودخلت أم كلثوم على عائشـة فاجلسـتها بجوارها وقالت :

ـ ارسل امير المؤمنين فيك الى ، فما ترين ؟

فاطرقت أم كلثوم وقد توردت وجنتاها ، وعقد لسانها ، ولم يظهر فى وجهها الارتياح ، فقالت لها عائشة فى حنان :

ـ الامر اليك •

وذهب روع أم كلثوم ، وانطلقت عقدة لسانها فقالت فى حياء :

ـ لا حاجة لى فيه •

فظهرت الدهشة فى وجه عائشة ، وقالت مستنكرة :

ـ ترغبين عن أمير المؤمنين !

فقالت أم كلثوم فى يسر :

ـ انه خشن العيش . شديد على النساء ·

فطرقت عائشة . ولم تراجع ام كلثوم فقد قالت رايها ، راحت تفكر فيما تفعل ؟ وكيف تبلغ هذا الرفض الى أمير المؤمنين . الذى بجلهم بعد موت الصديق . وبذل كل ما في طوقه ليجعل حياتهم رغدة آمنة . وجعلت تستعرض الدهاة فى مخيلتها لتختار من بينهم أكيسهم . ليقوم بهذه السفارة البغيضة دون ان يحرجها ودون ان يجرح كبرياء امير المؤمنين . فلم تجد الا عمرو بن العاص كفئا لها . فارسلت اليه . وجاء عمرو فقالت له أم المؤمنين .

ـ خطب أمير المؤمنين ام كلثوم ولكنها ترغب عنه ·

وسكتت عائشة . وفهم عمرو ما ترمى اليه فقال لها :

ـ أكفيك ·

وخرج الى امير المؤمنين وطفق يفكر فى الطريق ، ولم يطل تفكيره فقد وجد الداهية المخرج . فاغذ فى السير حتى اذا ما جاء عمر قال له .

ـ يا امير المؤمنين . بلغنى خبر أعيذك بالله منه ·

فنظر عمر اليه وقد بان التساؤل فى وجهه وقال :

ـ وما هو ؟

ـ خطبت أم كلثوم بنت أبى بكر ؟

ـ نعم · افرغبت بى عنها ام رغبت بها عنى ؟

ـ لا واحدة . ولكنها حدثة نشأت تحت كنف أم المؤمنين فى لين ورفق وفيك غلظة : ونحن نهابك . ولا نقدر ان نردك عن خلق من اخلاقك . فكيف بها ان خالفتك فى شىء فسطوت بها . كنت قد خلفت ابا بكر فى ولده بغير ما يحق عليك ·

فطاطا عمر بصره . وأخذ يفكر فى كلام عمرو الذى نفذ الى

قلبه . ان عمرا يقول حقا . أجل ان فيه غلظة . وانه لشـديد على النساء . فيدخل عابسـا ويخرج عابسـا ؛ وانه لا يود ان يخلف أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليه . ولكن عائشة ما تقول عنه اذا فسخ خطبته . ان هذا يكدره . فيا ليته احجم عن خطبة أم كلثوم من أول الأمر . ولكن لم كل هـــذا وداهية العـرب ماثل أمامه . انه ليستطيع ان يطلب عونه . فرفع رأسه وقال :

ـ فكيف بعائشة وقد كلمتها ؟

لقد عزم امـير المؤمنين على النكوص ، فاسرع عمـرو ليثبت الأمر .

ـ انا لك بها . وأدلك على خير منها .

ـ فمن ؟

ـ ام كلثوم بنت على بن أبى طالب .

وانصرف عمرو وقد أرضى أم المؤمنين ، وأرضى أمير المؤمنين . وارسـل طلحة بن عبيد الله يخطب ام كلثـوم . وكان طلحة جوادا خيرا . وراحت عائشة تقص على اختها اخباره وفعاله يوم أحد . وكيف ثبت مع النبى صلى الله عليه وسلم يذب عنه ويقـول له : نحرى دون نحرك يا رســول الله . وكيف ضربت يده . وســالت دماؤه ولم يتخل عن نبيه . وكيف كان الصديق يسمى يوم احد بيوم طلحة . وجعلت عائشة تقص الشيء الكثير عن كرمه وبره . فعجبت أم كلثوم به ، ورغبت فيه ، فعقد له عليها ، وبنى بها . ودارت عجلة الزمن ، ورزقها الله بنتا . فسـمياها باسم خالتهـا ام المؤمنين . واسـتمرت عجلة الزمن فى دورانها لتشب عائشة بنت طلحة حلوة فتانة . تسلب الألباب . وتنثر الغرام . وتعبث بالقلوب .

★ ★ ★

فوض عمر ملك فارس ، وطفق قواده يجدون فى أثر يزدجرد ملكهم ، فكان كلما نزل بمدينة حاصروها وفتحوها فلا يسعه الا أن يفر وقد حمل أهل بيته ونفائسه ، واستمرت المطاردة العنيفة ، واستمرت المدن تسقط فى أيدى العرب مدينة اثر مدينة ، فضاقت الأرض فى وجه يزدجرد ، وحدث أن دهم الغزاة احدى مدنه ولم يأخذ اهبته للفرار فكاد أن يقع فى الأسر ، فلما وجد الفاتحين قاب قوسين منه او ادنى ، فر ناجيا بجلده ، هائما على وجهه مخلفا وراءه أعز ما فى ملكه : فلذات أكباده الثلاث ، فوقعن فى ايدى العرب سبايا ، وحملن الى القائد فيما حمل اليه من النفائس والغنائم والسبى ، فاخرجهن فى الخمس الذى بعث به الى المدينة ليتصرف فيه أمير المؤمنين .

ووردت نفائس كسرى مدينة الرسول ، فقسمت فى الناس ، وأمر عمر ببيع السبايا ، وانتظر بنات يزدجرد ما يصيبهن وقد ارتسم الألم فى وجوههن ، وبان الأسى فى عيونهن ، وخيمت على وجوههن الوضاءة سحائب من الحزن ، فقد جار الزمن عليهن صغيرات ، وعبس لهن وعبث بهن وما دار بخلدهن قط ان يعبس أو يعبث ، فما كن يحسبن الدنيا الا باسمة مشرقة ، مقبلة غير مدبرة ، فاذا بها عنهن كاشحة معرضة ، ولسلطانهن طاوية ، ولحريتهن سالبة : لقد ضاع كل شىء ولم يبق لهن الا شبابهن ونضارتهن ، وتلفتن حولهن بعيون دامعة ملأتها العبرات ، فاين ما هن فيه ما كن فيه ، ذل بعد عز ، وخوف بعد أمن ، وانخفاض بعد رفعة ، وفقر بعد غنى ، ورق بعد سيادة وسلطان . ونظرت كل الى أختها وقد سالت الدموع ، وتألمت النفوس ، فانهن الآن

مجتمعات ، وعما قريب مفترقات . لا يعلمن الى أين يحملن . ولا الى من يدفع بهن . الى كريم يرحمهن ويواسي الجراح . أم الى لئيم لا يقيل عثرتهن ويسقيهن دوامة كاس الهوان .

ولم يشأ الزمن أن يستمر في قسوته ، بل شاء ان يجبر هذه القلوب التي تصدعت فقيض لها رجلا كريما . فما نظر ابن أبي طالب اليهن حتى رق لهن قلبه ، وتحركت عوامل الشفقة في نفسه الكبيرة ، وانتظر ليرى ما يرى فيهن عمر ، فأمر عمر ببيعهن فالتفت اليه علي وقال :

ــ ان بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة .

فصوب عمر بصره اليه وقال :

ــ وكيف الطريق الى العمل معهن ؟

فقال علي :

ــ يقومن . ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن .

فوافق أمير المؤمنين ، وقومن ، ودفع علي قيمتهن . وراح يفكر في اكفاء لهن ، فرأى ان يدفع بهن الى أحب الناس اليه ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر ، وأخرى لولده الحسين ، واخرى لربيبه محمد بن ابي بكر الصديق ، فأولد عبد الله أمته سالما ، وأولد الحسين زين العابدين ، واولد محمد ولده القاسم . واخذت عجلة الزمن في الدوران ليشب سالم وزين العابدين والقاسم اتقى اهل زمانهم .

الفصل التاسع عشر

بذور الفتنة

قتل عمر ، وبويع لعثمان بالخلافة ، وتسربت من يد ابن ابى طالب للمرة الثالثة . فساء ذلك محمد بن ابى بكر فقد كان هواه مع على . وكان يرى ان عليا احق بها وأجدر . ولا غرابة فى ميل محمد الى على ، فقد تربى فى كنفه . وشب وهو لا يعرف له أبا سواه . ولمس عظمته وعمله وعدله وجلاله . فكان يعتقد اعتقاد اليقين ان عثمان اخذها بغير حق . فأحس منذ اللحظة الأولى عدم ميل الى عثمان . واخذ يتصيد هفواته ليعيبها عليه . ثم حدث بعد ذلك ما اوغر صدر محمد على عثمان ، فقد ارتكب ما يوجب الحد ، فضربه عثمان . وكان المألوف أن يدهن مكان الضرب . ولكن عثمان ضربه دون أن يدهن . فنقم عليه . وعزم على أن يناوئه . فانطلق من المدينة قاصدا مصر .

وأسلم عبد الله بن سبأ ، وكان يهوديا من اهل صنعاء . وكانت امه سوداء . فكان يطلق عليه ابن السوداء . وراح ابن السوداء منذ اللحظة الأولى يبذر بذور الشقاق بين المسلمين ويحاول ضلالتهم : فبدأ بالحجاز وراح يوسوس فى صدور الناس . يحاول أن يغيرهم على اميرهم عثمان . ولكنه لم يجد النفوس مهيئة لدعوته . فورد البصرة . ونفث فيها بعض سمومه . ثم عرج على

الكوفة وبث آراءه . وهبط الى الشام وقابل ابا ذر الغفاري ، واوغر صدره على معاوية ، فهب أبو ذر ليناوئه : ولكن معاوية بلغه أن ابن السوداء هو الذى غير عليه أبا ذر فاخرجه من الشام ثم اخرج أبا ذر لما اعضل به . فانطلق ابن السوداء الى مصر ، فالفى فيها تربة خصبة لآرائه فجعل يبذرها حبة حبة ، حتى نجح اخر الأمر فى تشتيت شمل المسلمين وتفريقهم شيعا وأحزابا .

هبط ابن سبأ مصر وراح يحدث الناس حديث عينهم فالتف الناس حوله ، وفى يوم جلس ببضع نفر اليه وجعل يحدثهم كعادته ثم قال لهم :

ـ العجب ممن يزعم ان عيسى يرجع ، ويكذب بان محمدا يرجع . وقد قال الله عز وجل (ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد) فمحمد أحق بالرجوع من عيسى .

فنظر الناس اليه نظرة استفهام مشوبة باعجاب . فما كانوا يفقهون هذا قبل الآن ، وما كانوا يدرون شيئا عن الرجعة التى حدثهم عنها ابن سبأ . ثم جعلوا يتكلمون فيها حتى قبلوا ذلك عنه ، فاطمأن الى بذرة الشقاق الاولى التى بذرها بعناية ومهارة .

وتقابل ابن سبأ ومحمد بن ابى بكر فى مصر . وكان ابن السوداء يعلم هوى محمد وميله الى اهل البيت . فاشترك معه فى الدعوة لعلى وأخذ يقول :

ـ انه كان الف نبى ولكل نبى وصى ، وكان على وصى محمد : ومحمد خاتم الأنبياء . وعلى خاتم الأوصياء .

وتعاون محمد بن ابى بكر وعبد الله بن سبأ على دق أول مسمار فى نعش عثمان .

وعزل عثمان عمرو بن العاص عن ولاية مصر . واستعمل عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، فغضب عمرو غضبا شديدا ، وحقد على عثمان وفارق أخته التى كانت عنده ، وانطلق الى المدينة وقد عزم على ان يتى عليا والزبير وطلحة فيؤلبهم على عثمان وان يعترض الحاج فيخبرهم بما احدث عثمان ، بل لقد كان حقده عليه هائلا حتى انه راح يحرض عليه الراعى فى غنمه فى راس الجبل .

وكان محمد بن ابى حذيفة يتيما فى حجر عثمان ، وشب فى كنفه . فلما بويع عثمان اميرا للمؤمنين طمع محمد بن ابى حذيفة فى ان يولى عملا . ولكن عثمان لم يستعمله فقد كان حدثا فساء ذلك محمدا ، وانتظر ولم يتغير ثم تقدم الى عثمان يسأله العمل فقال له عثمان :

– يا بنى لو كنت رضى ؟ ثم سألتنى العمل لاستعملتك ، ولكن لست هناك .

فاطرق محمد بن ابى حذيفة ، وقد بان الكمد فى وجهه ، وساءه الا يستعمله عثمان فقال فى صوت فيه اسى :

– فائذن لى فلاخرج فلاطلب ما يقوتنى .

– اذهب حيث شئت .

وجهزه عثمان وحمله وأعطاه ما يكفيه ، فانطلق الى مصر ، فيا لعثمان . لقد اجتمع هناك ابن سبا ومحمد بن ابى بكر ومحمد ابن ابى حذيفة ، وعما قليل يبعث اليهم عمار بن ياسر ليرى له ما بلغه عن عامله فى مصر فينضم اليهم عمار ، الذى ضربه عثمان لكلام بينه وبين اخر ، فيتم عقدهم ، فيعملون على تحقيق غرضهم الا وهو خلع عثمان .

وكان فى عثمان ضعف لأهله . فكان يولى بنى أمية ويعطيهم . وكان كبار الصحابة يرون أن رحمهم منه قريبة ولكن الفضل فى غيرهم . وقد ساء ذلك عائشة أم المؤمنين . فكانت ترى خلعه . فأخذت تحرض عليه . بل والتمس من ذوى الفصاحة أن ينفروا الناس عنه . فكانت عائشة أول من سل السيف فى وجهه .

الفصل العشرون

تألق النجم

سرح عثمان عبد الله بن ابى السرح الى افريقية ، وقال له : « ان فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم » فتجهز ابن ابى السرح وخرج من مصر في عشرة آلاف مقاتل ليفتح شمال افريقية . فالتقت جموع المسلمين بجموع الروم ، ودارت معارك رهيبة ، ورأى ابن ابى السرح الا قبل له على كسر شوكة أعدائه ، فبعث الى امير المؤمنين يستمده . فانتدب أمير المؤمنين الناس للخروج للجهاد . فتقدم عشرة الاف ، فيهم جماعة من الصحابة منهم ابن عباس وابن عمر وابن عمرو وابن جعفر - وكان عثمان قد الزمه حدود الله ، وسيتلاقى ومحمد بن ابى بكر بعيدا عن أعين اهل المدينة . وسيتناجيان ويدبران - والحسن والحسين وابن الزبير . وخرج الجميع من مدينة الرسول وانطلقوا حتى لحقوا جيوش المسلمين فى افريقية .

والتقى الجمعان ، وامر جرجير ملك الروم جيشه أن يلتفوا بالمسلمين فحاطوا بهم هالة ، ودار القتال وكانت وطأته شديدة على المسلمين . واخذ صناديدهم يذبون عن انفسهم ويشدون على الأعداء ليكسروا حلقة الأعداء التى تود أن تطبق عليهم لتستاصل شأفتهم فوقفوا فى موقف رهيب ، لم ير اشنع منه ولا أخوف عليهم

مله . ولكنهم منه . ولكنهم تواصـوا بالصبر . وراحوا يشـددون التكبير . وارتفعت الشمس حتى توسطت كبد السماء . فارتفع صوت المؤذن يؤذن بالظهـر . فابتدأ الجيشـان فى الانصراف لمتأهبوا لاستئناف القتال فى اليوم التالى .

ولاحظ ابن الزبير غياب ابن ابى السرح عن القتال فتعجب من ذلك . فما كان من أخلاق قوادهم ان يتخلفوا عن القتال . بل كانوا دائما فرسان الحلبة المبرزين . فما بال ابن أبى السرح يغيب عن المعركة . فسأل عن سبب ذلك فقيل له :

ـ انه سمع منادى جرجير يقول : من قتل ابن ابى السرح فله مائة الف دينار وازوجه ابنتى . فخاف وتأخر عن شهود القتال .

فانطلق ابن الزبير الى عبـد الله بن ابى السرح ودخل عليـه وقال له :

ـ لم تتخلف عن القتال ؟ أمن اجل ما نادى به ؟ فلتناد انت بأن من قتل جرجير نفلته مائة الف وزوجته ابنته .

وتراءى الجمعان . وبرز منادى المسلمين ونادى :

ـ من قتل جرجير نفله الأمير مائة الف وزوجه ابنته .

فأحس جرجير رهبة . وأوجس خيفة فسيكون هدف المسلمين جميعا فتأخر . وراح يتلفت وقد انتابه ذعر وقلق . ونشب القتال واستمر حتى اذا ما اذن المؤذن بالظهر انصرف الجيشان . وانصرف عبد الله بن الزبير الى خيمته . وتمدد . وراح يستعرض ما شهده فى القتال . لقد رأى ان الجيشين يحاربان حتى الظهر ثم ينصرفان . وخطر له خاطر . ثم احتل هذا الخاطر ذهنه فجعل لا يفكر الا فيه . وتساوقت الافكار وتناسقت . واتم عبد الله تدبير كل شىء فى رأسه .

ثم نهض واتجه الى عبد الله ابن ابى السرح ليفضى اليه بالخطة التى فكر فيها ، والتى ستضع حدا للمعركة الفاصلة الدائرة ·

واختلى ابن الزبير وعبد الله بن ابى السرح وراح يفضى اليه برايه ثم قال :

– أرى أن يترك أبطال المسلمين فى خيامهم متأهبين للحرب حتى اذا ما انصرف الروم ركب عليهم المنتظرون فى الخيام ·

فاعجب ابن ابى السرح بالخطة ، وامر صناديد جيشه بالاستتار فى خيامهم وعدم اشتراكهم فى الحرب الدائرة من الصبح حتى الظهر ، والخروج عند سماع آذان الظهر ليحموا ظهر ابن الزبير الذى سينطلق قدما الى جرجير ·

وبرزت الشمس وبرز الجيشان للقتال ، وتبودلت الضربات والطعنات وتلاقت السيوف ، وتصافحت الأجسام ، وسالت الدماء ، وجللت الجثث المكان ، واقتربت الشمس من كبد السماء ، فمشى التعب فى الاجسام ، وانتظر الناس سماع الاذان فقد حنت ابدانهم الى الراحة ، وحان الحين ، واذن المؤذن بالظهر ، فافترق المتلاحمون ، وانصرف كل الى عسكره ، وهم الروم بالانصراف ، وكانت عين أبن الزبير على ملكهم ، فرآه من وراء الصفوف وهو راكب على برذون ، وجاريتان تظللانه بريش الطواويس ·

فالتفت ابن الزبير الى صناديد المسلمين المتأهبين للقتال وقال لهم :

– احموا لى ظهرى ·

ثم انطلق الى الملك ثابت الجنان ، لا يظهر عليه أى الاضطراب ، وراح يخترق الصفوف اليه ، والناس يتركونه وقد حسبوا انه ذاهب فى رسالة الى مليكهم ، ولما اقترب منه بان الشر

فى وجهه . فاجفل الملك وفر من على برذونه . فانطلق فى اثره ، وانقض فرسان المسلمين ليحموا ظهر ابن الزبير الباسل .

ولحق ابن الزبير الملك ، فانقض عليه ، وطعنه برمحه ، وذفف عليه بسيفه ، واخذ رأسه ونصبه على الرمح ثم كبر . وانقض المسلمون على الأعداء ، فلما رأى ذلك البربر فرقوا ، وفروا كفرار القطا . واتبعهم المسلمون ، وجعلوا يقتلون ويأسرون . وانجلت المعركة عن نصر مبين ، كان الفضل فيه لابن الزبير الذى فكر ودبر ونفذ ، وارتفع اسم ابن الزبير سريعا ، وتألق نجمه فقد كان البطل المجلى فى أول معركة يخوض غمارها .

وغنم المسلمون غنائم جمة ، واموالا كثيرة ، وسبية عظيما ، وقسم عبد الله بن ابى السرح الغنائم فاحتجز الخمس لأمير المؤمنين ، وقسم الباقى على المقاتلين ، ثم احتجز لنفسه خمس الخمس كما وعده امير المؤمنين ، فكان هذا سلاحا جديدا فى أيدى مساوىء عثمان نشهروه فى وجهه ، وراحوا يعيبون عليه ميله وهواه الى اهله . واخذت ابنة الملك سبية ، فقدمها ابن ابى السرح الى ابن الزبير هدية ، وشاء ابن ابى السرح أن يبعث الى امير المؤمنين بالبشارة . فاختار بطل المعركة لينطلق الى عثمان بالفتح العظيم . فخرج ابن الزبير قاصدا المدينة وجعل يطوى الصحارى والوديان . ويتمنى ان يكون له جناحان ليطير الى امير المؤمنين لينبئه بالخبر العظيم .

ودخل ابن الزبير على عثمان ، وقد تهلل وجهه ، وبان السرور فى عينيه ، وجعل يقص على عثمان ما فعله المسلمون حتى جاءهم بالنصر ، فالتفت عثمان اليه وقال :

ــ ان استطعت أن تؤدى هذا للناس فوق المنبر .

فقال ابن الزبير فى ثقة :

ـ نعم .

وخرج الى المسجد وصعد المنبر . واجتمع الناس ليسمعوا ما يقول هذا الحدث الذى جاء بالبشارة . وانطلق عبد الله وتدفق فاستحوذ على الناس . واستولى عليهم . فأعاروه سمعهم . واستمر فى القائه الرصين . وبيانه الأخاذ . والتفت فاذا ابوه الزبير فى جملة من حضر . فلما تبين وجهه كاد أن يرتج عليه فى الكلام . فقد كان يهابه ويخشاه قلبه . ولكن الزبير ابتسم له . ورمزه بعينه . وأشار اليه ليحضه على استئناف ما كان فيه . فتمالك عبد الله روعه . وعادت اليه رباطة جأشه . وقال وحلق فى القول . فاثلج صدر الزبير . وأخذ يستمع الى ابنه وقد تفتحت جوانح نفسه . وانشرح صدره . وأحس دمعة فرح تكاد تفر من عينيه فمسحها بظهر يده . وأخذته النشوة وهزه الطرب . وود أن ينطلق ليضم ابنه الحبيب الى صدره . وانتهى ابن الزبير من قوله . فنزل فأسرع اليه الزبير والتفت اليه فى حنان . وقال له فى اعجاب :

ـ والله لكأنى اسمع خطبة أبى بكر الصديق حين سمعت خطبتك يا بنى .

الفصل الحادى والعشرون

عيب عثمان

انتصر المسلمون فى افريقية على الروم انتصارا باهرا . فاغضب ذلك قسطنطين بن هرقل . فعزم على قتال المسلمين بنفسه . فخرج فى جمع لم يجتمع للروم مثله قط منذ كان الاسلام . وتجهزت المراكب وكانت خمسمائة مركب اقلعت لملاقاة المسلمين . وبلغ عبد الله بن ابى سرح خروج الروم لقتاله . فاعد المراكب وحمل المسلمين . وكان محمد بن ابى بكر ومحمد بن ابى حذيفة قد اجتمعا فى غزوة افريقية . فحملهما عبد الله فى مركب واحد . فاخذا يوسوسان للناس أن دم عثمان حلال . ويقولان استعمل عبد الله ابن سعد بن ابى سرح رجلا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اباح دمه . ونزل القرآن بكفره . واخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما وادخلهم . ونزع اصحاب رسول الله واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر . واستمر فى عيب عثمان والنيل منه . حتى اخذ الناس يتحدثون عما احدث عثمان .

وقام عبد الله بن ابى سرح ليصلى بالناس العصر . فكبر محمد ابن ابى حذيفة تكبيرا ورفع صوته حتى فرغ الامام عبد الله . فسأل : ما هذا ؟

فقيل له هذا محمد بن ابى حذيفة يكبر . فدعاه عبد الله فقال له :

ـ ما هذه البدعة والحدث ؟

ـ ما هذه بدعة ولا حدث وما بالتكبير بأس .

ـ لا تعودن .

وانصرف محمد بن أبى حذيفة واجتمع بمحمد بن أبى بكر ، واستانفا ما كانا فيـــه ، فلوسعا الأرض اذاعة ، وأخذ النـــاس يستمعون اليهما فراحا يقولان ان عثمان قد اتم الصلاة فى السفر وما اتمها النبى ولا ابو بكر ولا عمـر . وان أصحاب الرسـول لا يرضون عما يفعل عثمان ، وقال محمد بن ابى بكر للناس انه تسلم رسالة ممن بالمدينة من اصحاب النبى صلى الله عليه وسـلم جاء فيها : انكم انما خرجتم أن تجاهدوا فى سبيل الله عز وجل تطلبون دين محمد صلى الله عليه وسلم ، فان دين محمد قد أفسد من خلفكم وترك ، فهلموا فاقيموا دين محمد صلى الله عليه وسلم » .

وانحدرت الشمس وأذن المؤذن بالمغرب ، فقام عبد الله بن أبى سرح ليصلى بالنـــاس وكبر محمد بن أبى حذيفـــة تكبيرا ارفع من الأول ، فارسل اليه وقال له :

ـ انك غلام أحمق ، أما والله لولا أنى لا أدرى ما يوافق أمير المؤمنين لقاربت بين خطوك .

ـ والله ما لك الى ذلك من سـبيل ، ولو هممت به ما قـدرت عليه .

ـ فكف خير لك .

واستمر محمد بن أبى حذيفـة ومحمد بن ابى بكر فى تأليب القوم على عثمان ، وبلغ ذلك عبد الله فبعث اليهما وراح ينهاهما اشد النهى ، ولكنهما لم يرجعا ، فقال لهما :

ـ والله لولا انى لا أدرى ما يوافق أمير المؤمنين لعاقبتكما وحبستكما . لا تركبا معنا ·

فانتقل محمد بن ابى بكر ومحمد بن ابى حذيفة الى مركب ما فيه أحد من المسلمين . ما معهما الا القبط . واستمرت المراكب فى ابحارها حتى بلغ المسلمون ذات الصوارى . فلاح لهم أسطول قسطنطين العظيم ·

فالتفت عبد الله بن أبى سرح الى من حوله وقال :

ـ أشيروا على ·

فقالوا :

ـ ننتظر الليلة ·

ووقفت مراكب المسلمين امام مراكب الأعداء . وارخى الليل سدوله . وشاء ان يسيطر سكونه . ولكن نواقيس الروم التى كانت تدق دقات متلاحقة . وتكبير المسلمين وابتهالاتهم كانت تهتك السكون . وراح الناس يقرءون سورة الأنفال . وانقضى الليل ولاح الصباح . وهبت ريح شديدة على سفن المسلمين . ورست مراكب قسطنطين قريبا من مراكب المسلمين · فبعث عبد الله الى الروم : « الامر بيننا وبينكم » فقالوا « ذلك لكم ولنا منكم » وهدأت الريح ثم أوفد ابن أبى سرح اليهم :

ـ ان احببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم . وان شئتم فالبحر . فقالوا :

ـ الماء ·

لقد هزم الروم فى الارض . فشاءوا أن ينتصروا فى البحر . فما كان للعرب علم بقتال السفن . وانها لفرصة طيبة ليقتصوا لما نالهم فى افريقية وليغسلوا عاره . واقتربت سفن المسلمين من

سفن الروم . وقد تأهب القوم للقتال ، فقد شدوا على نواجذهم ، ورفعوا أسيافهم . وارتفعت أصواتهم بالتكبير ، والتحقت السفن بالسفن ثم ربط بعضها الى بعض . ودار القتال ، فوثب الرجال على الرجال ، يضربون بالسيوف على السفن ، ويتواجئون بالخناجر . وقفز محمد بن ابى بكر الى مراكب الروم ، وقد استل سيفه وكشر عن انيابه ، وراح يصول ويجول ويقفز في خفة الغزال ويضرب ضرب الأبطال . وشد من ازره محمد بن أبى حذيفة فجعلا يقصفان الروم قصفا شديدا ، وسالت الدماء وامتزجت بمياه البحر ، فكان الدم الغالب على الماء ، وسقطت جثث القتلى فى البحر فكانت الأمواج تضربها وراحت تطرحها ركاما ، وقتل من المسلمين بشر كثير ، وأصيب الروم بخسائر فادحة ، وصبر صناديد المسلمين للقتال صبرا ما صبروه فى موطن آخر ، وتضعضع قسطنطين ، فقد خلصت اليه الجراح ، ودب اليه الوهن ، فلم يستطع كثير صبر ، فولى الادبار ، وبقي الأسطول الظافر في ذات الصوارى اياما .

واجتمع محمد بن أبى بكر ومحمد بن ابى حذيفة هناك ، واخذ الناس يعجبون منهما ، فقد عابا عبد الله بن ابى سرح ، ولكن ما ان وقعت الواقعة ونشب القتال حتى كانا انكل المسلمين قتالا ، فسالوهما عن ذلك فقالا :

— كيف نقاتل مع رجل لا ينبغى لنا ان نحكمه ؟

وقال محمد بن ابى حذيفة :

— أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقا .

— وأى جهاد ؟

— عثمان بن عفان .

الفصل الثاني والعشرون

قتيل الدار

استمر ابن سبأ ينفث سمومه في مصر ، وطفق يحرض الناس على الطعن على امرائهم . وأمر اتباعه أن يظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليستميلوا الناس ، وجعل يكاتب من كان استفسد في الامصار وكاتبوه . فاستمرت خيوط التآمر على عثمان تحاك في الظلام ، حتى اذا ما اخذت بخناقه بانت ووضحت وظهرت للعيان • وعاد محمد بن أبي بكر ومحمد ابن ابي حذيفة من غزوة ذات الصواري الى مصر وقد افسدا الناس • واستأنفا نشاطهما فشدا من ازر دعوة ابن سبأ ونجحوا جميعا في استمالة خلق كثير من المصريين . ومما زاد الطين بلة ان عبد الله بن أبي سرح قد ضرب بعض الذين أتوا اليه من المصريين . فحنق اهل مصر عليه . وانضموا الى الساخطين وقد صمموا على الخروج الى امامهم في المدينة •

• خرج المصريون وقد أظهروا انهم يريدون العمرة ، وخرج محمد ابن ابي بكر معهم ، وشيعهم محمد بن أبي حذيفة الى عجرود ثم قفل راجعا ، فكان اذا سئل عمن خرج كان يقول : خرج القوم للعمرة ، ولكنه جعل يقول في السر : خرج القوم الى امامهم فان نزع والا قتلوه •

وأوفد عبد الله بن ابي سرح الى عثمان رسولا ينبئه نبأ القوم . فأطرق عثمان ثم التفت الى من عنده وقال :

– هؤلاء قوم من أهل مصر يريدون يزعمهم العمرة ، والله ما اراهم يريدونها ، ولكن الناس قد دخل بهم ، وسرعوا الى الفتنة - وطال عليهم عمرى ، أما والله لئن فارقتهم ليتمنون ان عمرى كان طال عليهم مكان كل يوم بسنة مما يرون من الدماء المسفوكة والاحن ، والأثرة الظاهرة والأحكام المغيرة .

ونزل المصريون ذا خشب ، وذاع فى المدينة انهم ما جاءوا الا لقتل أمير المؤمنين . ثم دخل كبار الصحابة على عثمان وقالوا له ان وفد مصر يطلب عزل عبد الله بن سعد بن ابى سرح ، وارسلت عائشة ام المؤمنين اليه : « تقدم اليك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وسألوك عزل هذا الرجل فأبيت ، فهذا قد قتل منهم رجلا فانصفهم من عاملك » ، ورأى عثمان ان لا مناص من استجابة رغبة المصريين فبعث اليهم وقال لهم :

– اختاروا رجلا عليكم مكانه .

فاختار الناس محمد بن أبى بكر ، فكتب عثمان عهده له وولاه ، وراح محمد يتأهب للخروج الى مصر ، فلما تم كل شىء ، خرج ومعه عدد من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بين اهل مصر وابن أبى سرح ، وانطلق الركب ، وترك مدينة الرسول وانقضت ثلاثة أيام ، ولمح الناس غلاما أسود على بعير يخبطه خبطا ، فانتظروه لعله يقصدهم لحاجة ، ولكنه لما حاذاهم لم يتمهل ولم ينتظر بل استمر يغذ فى السير ، فارتابوا فى امره وبعثوا من يطلبه فجىء به فسألوه :

– ما قضيتك وما شأنك ؟ أهارب أم طالب احدا ؟

– لا هذا ولا ذاك ، وانما انا غلام امير المؤمنين وجهنى الى عامله فى مصر .

فاشار رجل الى محمد بن ابى بكر وقال :

ـ هذا عامل مصر ٠

ـ ليس هذا اريد ٠

وشاء الغلام أن يستأنف سيره ، ولكن محمد بن أبى بكر قبض عليه وقال :

ـ غلام من أنت ؟

ـ غلام أمير المؤمنين ٠

فنظر اليه محمد نظره فاحصة وهزه وقال :

ـ حقا ؟

ـ بل غلام مروان ٠

واقترب رجل وتفرس فى وجهه وقال :

ـ انه غلام امير المؤمنين ٠

فقال له محمد :

ـ الى من أرسلت ؟

ـ الى عامل مصر ٠

ـ بماذا ؟

ـ برسالة ٠

ـ معك كتاب ؟

ـ لا ٠

فالتفت محمد الى من حوله وقال :

ـ فتشوه ٠

ففتشوه فلم يجدوا معه شيئا ، وكادوا يطلقون سراحه ، ولكنهم وجدوا معه اداوة قد يبست ، فيها شىء يتقلقل ، فحركوه ليخرج فلم يخرج ، فشقوا الأداوة فاذا فيها كتاب من عثمان الى ابن أبى سرح ،

فجمع محمد من كان عنده من المهاجرين والانصار وغيرهم ثم فض الكتاب بمحضر منهم . وراح يقراه فتغيرت هيئته ، وبان الغضب فى وجهه . فانه ليأمر عبد الله بن ابى سرح بقتله وقتل اصحابه . فقفل محمد عائدا الى المدينة وقد بيت العزم على قتل عثمان الذى أهدر دمه بلا مبرر .

ختم محمد الكتاب بخواتيم نفر كانوا معه . ثم عاد الى المدينة وجمع طلحةً والزبير وعليـا وسعداً ، ثم فض الكتاب بمحضر منهم وقراه عليهم . فدخل عليّ على عثمان ودخل نفر من المصريين فما سلموا عليه بالخلافة ثم قالوا :

ـ رحلنا من مصر ونحن لا نريد الا دمك او تنزع ، فردنا على ومحمد بن مسلمة . ثم رجعنـا الى بلادنا حتى اذا كنـا بالبويب اخذنا كتابك وخاتمك الى عبد الله بن سعد تأمره فيه بجلد ظهورنا . فقال عثمان :

ـ والله ما كتبت ولا امرت ولا شوورت ولا علمت

فقال على :

ـ قد صدق .

فارتاح اليها عثمان وقال المصريون :

ـ فالكتاب كتابك ؟

ـ اجل . ولكنه كتب بغير امرى .

ـ فان الرسول الذى وجدنا معه الكتاب غلامك ؟

ـ اجل . ولكنه كتب بغير اذنى .

ـ فالجمل جملك ؟

ـ اجل ولكنه أخذ بغير علمى .

ـ ما انت الا صادق أو كاذب ، فان كنت كاذبا فقد استحققت

الخلع لما أمرت به من سفك دمائنا بغير حقها . وان كنت صادقا فقد استحققت ان تخلع لضعفك وغفلتك وخبث بطانتك . لأنه لا ينبغى لنا ان نترك على رقابنا من يقتطع مثل هذا الأمر دونه لضعفه وغفلته . فاردد خلافتنا . واعتزل امرنا . فان ذلك اسلم لنا منك . واسلم لك منا .

فقال عثمان :

ـ فرغتم من كل ما تريدون ؟

ـ نعم .

ـ الحمد لله احمده وأستعينه . وأومن به وأتوكل عليه . وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له . وان محمدا عبده ورسوله . ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . اما بعد فانكم لم تعدلوا فى المنطق . ولم تنصفوا فى القضاء : أما قولكم تخلع نفسك فلا انزع قميصا قمصنيه الله عز وجل واكرمنى به . وخصنى به على غيرى . ولكن اتوب وانزع ولا اعود لشىء عابه المسلمون . فانى والله الفقير الى الله الخائف منه .

ـ ان هذا لو كان أول حدث احدثته ثم تبت منه ولم تقم عليه لكان علينا ان نقبل منك . وان ننصرف عنك . ولكنك قد كان منك الاحداث قبل هذا لما قد علمت . وقد انصرفنا عنك فى المرة الأولى ولا نخشى أن تكتب فينا . ولا من اعتللت به بما وجدنا فى كتابك مع غلامك . وكيف نقبل توبتك وقد بلونا منك أن لا تعطى من نفسك التوبة من ذنب الا عدت اليه . فلسنا منصرفين حتى نعزلك ونستبدل بك . فان حال من معك من قومك وذوى رحمك واهل الانقطاع اليك دونك بقتال قاتلناهم حتى نخلص اليك فنقتلك . او تلحق ارواحنا بالله .

ـ اما أن أتبرأ من الامارة . فان تصلبوني أحب الي من أن أتبرأ من أمر الله عز وجل وخلافته . وأما قولكم تقاتلون من قاتل دوني . فاني لا آمر احدا بقتالكم . فمن قاتل دوني فانما قاتل بغير أمري . ولعمري لو كنت أريد قتالكم لقد كنت كتبت الى الأجناد . فقادوا الجنود . وبعثوا الرجال . أو لحقت ببعض أطرافي بمصر أو عراق . فالله الله في انفسكم . فابقوا عليها ان لم تبقوا على فانكم مجتلبون بهذا الأمر دما .

وانصرف المصريون عن عثمان وقد آذنوه بالحرب .

وحوصر عثمان . وقد حصره المصريون واشترك محمد بن أبي بكر معهم . وارسل على ولديه الحسن والحسين ليقوما على باب عثمان . وارسل الزبير ابنه عبد الله لينب عنه . وانضم اليهم بنو أمية . واستمر الحصار . وانضم محمد بن جعفر الى محمد بن أبي بكر . وقد حاول كبار الصحابة ان يفتلوا المحاصرين عن عزمهم . ولكنهم باءوا بالفشل . انفلت الأمر من ايديهم . وأصبح الامر أمر الثوار . فلزم أهل المدينة دورهم . وبعثت ليلى ابنة عميس الى محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر . فلما دخلا عليها قالت لهما :

ـ ان المصباح يأكل نفسه . ويضيء للناس . فلا تأثما في أمر تسوقانه الى من لا يأثم فيكما . فان الأمر الذي تحاولون اليوم لغيركم غدا . فاتقوا أن يكون عملكم اليوم حسرة عليكم فلجا .

ـ لا ننسى ما صنع بنا عثمان .

ـ ما صنع بكما الا أن ألزمكما حدود الله .

وخرجا مغضبين . وانطلقا الى دار عثمان . وحاول الثوار اقتحام الباب فبرز لهم الحسن وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان

ابن الحكم وسعيد بن العاص ومن كان من ابناء الصحابة ، واجتلد الفريقان وراح ابن الزبير يذب عن الباب وخلصت اليه الجراح ، واقترب محمد بن ابى بكر من ابن الزبير ومروان وأخذ يتوعدهما ويسبهما ، ونادى عثمان من يذبون عنه :

ـ الله الله انتم فى حل من نصرتى ٠

فابوا واستمروا فى القتال . ففتح عثمان الباب وخرج ومعه المصحف ليردهم . فلما رأى المصريون عثمان ثبتوا فى مكانهم قليلا ثم ادبروا فزعين ، فاقسم عثمان على الصحابة ليدخلن ٠ فابوا أن ينصرفوا فدخلوا فاغلق الباب دون المصريين ٠

وتجهزت عائشة خارجة الى الحج هاربة . فقد نال الناس من عثمان ومنعوا عنه الماء . فارسل اليها والى على والزبير وطلحة يقول : انهم قد منعونا الماء . فان قدرتم أن ترسلوا الينا شيئا من الماء فافعلوا ، فجاء على فى الغلس . فقال : يا أيها الناس ان الذى تفعلونه لا يشبه أمر المؤمنين ولا امر الكافرين . لا تقطعوا عن هذا الرجل الماء . فان الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقى . وما تعرض لكم هذا الرجل . فبم تستحلون حصره وقتله ؟ ! ٠

فقال الثوار : « لا والله . ولا نعمة عين لا نتركه يأكل ولا يشرب » فرمى بعمامته فى الدار بانى قد نهضت فيما انهضتنى . ورجع على واقبلت ام حبيبة أم المؤمنين ، فضربوا وجه بغلتها ، وقطعوا حبل البغلة بالسيف فندت بأم حبيبة ، فتلقاها الناس وقد مالت براحلتها ، فتعلقوا بها واخذوها وقد كادت تقتل . فاحجمت عائشة عن الانطلاق الى عثمان خشية أن ينالها ما نال ام حبيبة ، وتجهزت للحج لتهرب من حضور مقتل أمير المؤمنين . وقبل أن تنطلق بعثت الى اخيها محمد بن ابى بكر تستتبعه فابى ٠ وكيف

يخرج معها ولم يبق على ان ينال بغيته الا أن يقتحم الدار . وأقبل رجل الى محمد وقال له :

ـ يا محمد ، تستتبعك أم المؤمنين فلا تتبعها ، وتدعوك ذؤبان العرب الى ما لا يحل فتتبعهم ؟

ـ ما أنت وذاك يا بن التميمية ؟

ـ يا بن الخثعمية ان هذا الأمر ان صار الى التغالب غلبتك عليه بنو عبد مناف .

وانصرف الرجل . وأقبل طلحة بن عبد الله وقال :

ـ اين ابن عديس ؟

فقيل له :

ـ ها هو ذا .

فأتى طلحة ابن عديس زعيم الثوار فناجاه بشيء ثم رجع ابن عديس فقال لأصحابه :

ـ لا تتركوا أحدا يدخل على هذا الرجل ، ولا يخرج من عنده .

وبلغ الصوت عثمان فقال :

ـ هذا ما أمر به طلحة .

ثم اطرق قليلا ، ثم رفع رأسه وقال :

ـ اللهم اكفني طلحة بن عبيد الله ، فانه حمل على هؤلاء وألبهم . والله اني لأرجو أن يكون منها صفرا ، وان يسفك دمه ان انتهك مني ما لا يحل له .

وفتح باب دار عثمان وأراد ابن عباس ان يخرج فمنعوه ، ومر به محمد بن أبي بكر فالتفت الى الثوار وقال :

ـ خلوه .

فتركوه . ولم يك عند الباب أحد . فقد دخل الصحابة ووقفوا

خلفه . فجاء الثوار بنار وأحرقوا الباب والسقيفة . فتأجج الباب والسقيفة . وأخذ الخشب فى الاحتراق . ووقف أمام الباب عبد الله ابن سلام وراح يصيح فى الناس :

- يا قوم . لا تسلوا سيف الله عليكم . فوالله ان سللتموه لا تغمدوه . ويلكم ان سلطانكم اليوم يقوم بالدرة . فان قتلتموه لا يقوم الا بالسيف . ويلكم ان مدينتكم محفوفة بملائكة الله . والله لئن قتلتموه لتتركنها .

فارتفعت اصوات الثوار :

- يا بن اليهودية . وما انت وهذا ؟

ورأى ابن سلام عزم القوم . فرجع عنهم وقد اطرق اسفا . واكلت النار الخشب . فخرت السقيفة على الباب فثار اهل الدار . واستمر عثمان فى صلاته وكأنما الخطر المحدق به لا يعنيه . وبرز الحسن للقتال وراح يرتجز :

لا دينهم دينى ولا أنا منهم حتى اسير الى طمار شمام

واستمر عبد الله بن الزبير مع عثمان . وعثمان يقرأ فى صلاته : « طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى » واستمر فى قراءته هادىء النفس ما يخطىء وما يتتعتع . وأتم صلاته ثم التفت الى ابن الزبير وأمره أن يأتى اهل الدار فيأمرهم بالانصراف الى منازلهم . فخرج عبد الله من عنده . وكان آخر من خرج . واستمر القتال على باب عثمان . وجرح الحسن . وخشى محمد بن ابى بكر ان تثور قريش للحسن . فتسور محمد وصاحباه من دار رجل من الانصار حتى دخلوا على عثمان . ولا يعلم احد ممن كانوا بالباب .

صرخت نائلة زوج عثمان :

- قد قتل امير المؤمنين .

ويلغ الصوت اذان المدافعين عن الباب . فاسرعوا بالدخول فوجدوا عثمان مقتولا . فبكوا . وذاع النبأ الا ان امير المؤمنين قد قتل . فاقبل على ودخل الدار وهو كالواله الحزين . والتفت الى ولديه وقال في غضب :

ــ كيف قتل امير المؤمنين وانتما على الباب ؟

وثار على فلطم الحسن وضرب الحسين ، وشتم محمد بن طلحة ولعن عبد الله بن الزبير . فقال له ابن طلحة

ــ لا تضرب يا ابا الحسن ولا تشتم ، ولا تلعن ، ولو دفع مروان ما قتل .

ودخل على على زوجة عثمان وقال لها :

ــ من قتله وانت كنت معه ؟

فقالت :

ــ دخل عليه محمد بن ابى بكر وهو يقرا فى المصحف . فاخذ بلحيته فقال : يا محمد . والله لو رآك ابوك لساءه مكانك . فتراخت يد محمد وخرج عنه وهو مطاطىء الرأس ثم دخل رجلان عليه فوجداه فقتلاه .

فقال محمد بن ابى بكر :

ــ والله لقد دخلت عليه . وانا اريد قتله . فلما خاطبنى بما قال خرجت وانا لا اعلم بتخلف الرجلين عنى . والله ما كان لى فى قتله سبب . وقد قتل وانا لا اعلم بقتله .

وقتل عثمان فابتدات الفتن تفد كالموج يجر بعضها بعضا .

الفصل الثالث والعشرون

دم عثمان

خرجت عائشة للحج وخرج معها أخوها عبد الرحمن ، وخرج بعدها عبد الله بن عباس على الموسم بامر عثمان . وقتل عثمان بعد يومين من خروج ابن عباس ، وهرب مروان وبنو أمية ليلحقوا بمكة . وتساقط الهراب على مكة وعائشة مقيمة بها تريد عمرة المحرم ، فلما تساقط اليها الهراب استخبرت رجلا يقال له أخضر فقالت :

ـ ما صنع الناس ؟

ـ قتل عثمان المصريين .

ـ انا لله وانا اليه راجعون ، أيقتل قوما جاءوا يطلبون الحق ، وينكرون الظلم ، والله لا نرضى بهذا .

وبقيت عائشة وقدم اخر فسألته :

ـ ما صنع الناس ؟

ـ قتل المصريون عثمان .

ـ العجب لأخضر زعم ان المقتول هو القاتل ، ومن أمير القوم ؟

ـ لم يجبهم الى التأمير احد .

ـ اكيس هذا غب ما كان يدور بينكم من عتاب الاستصلاح ؟

وتلقت عائشة نبأ مقتل عثمان فلم تثر ، ولم تطالب بدمه ، بل

بقيت فى مكة حتى اذا ما اتمت حجها ، وقفلت عائدة الى المدينـة لقيها عند سرف رجل من أخوالها من بنى ليث فقالت :

ـ ما وراءك ؟

فصمت ولم يحر جوابا .

ـ ويحك علينا او لنا ؟

ـ لا أدرى : قتل عثمان وبقوا ثمانيا .

ـ ثم صنعوا ماذا ؟

ـ أخذها أهل المدينة بالاجتماع ، فجازت بهم الأمور الى خير مجاز ، اجتمعوا على على بن ابى طالب .

فما ان صك اسمه على اذن عائشة حتى اكفهر وجهها ، وتحركت عوامل الغيظ فى صدرها ، ولم تستطع كبح جماح نفسها بل قالت

ـ والله ليت آن هذه انطبقت على هذه ان تم الأمر لصاحبك ، ردونى ردونى ، قتل والله عثمان مظلوما ، والله لأطلبن بدمه .

ـ ولم ؟ فوالله ان أول من امال حرفه لانت ، ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقد كفر .

ـ انهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولى الاخير خير من قولى الأول .

وانصرفت عائشـة الى مكة وقد عزمت على تأليب القوم على أمير المؤمنين على ، وبلغت باب المسجد وهى لا تقول شيئا ، ولا يخرج منها شيء ، ثم قصدت الحجر فاستترت فيه ، وبلغ القوم عودة أم المؤمنين فاسرعوا الى المسجد ليروا ما الخبر ، فلما التج المسجد بالناس ، قالت عائشة فى نبرات أخاذة

ـ يا ايها الناس ، ان الغوغاء من اهل الأمصار ، وأهل المياه وعبيد اهل المدينـة اجتمعوا ان عاب الغوغاء على هذا المقتول

بالأمس الارب : واستعمال من حدثت سنه وقد استعمل اسنانهم قبله . ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم . وهى امور قد سبق بها لا يصلح غيرها . فتابعهم ونزع عنها استصلاحا لهم . فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا خجلوا وبادءوا بالعدوان . ونبا فعلهم عن قولهم . فسفكوا الدم الحرام . واستحلوا البلد الحرام . واخذوا المال الحرام . واستحلوا الشهر الحرام . والله لا صبع عثمان خير من طباق الارض أمثالهم . فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ويشرد من بعدهم . ووالله لو ان الذى اعتدوا به عليه كان ذنبا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه . او الثوب من درنه اذا ماصوه كما يماص الثوب بالماء .

ان عثمان قتل مظلوما . وان الامر لا يستقيم ولهذه الغوغاء امر . فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الاسلام .

وابتدات الفتنة التى ايقظتها بنت ابى قحافة تتحرك وتزحف لتنطلق الى ابعد مما قدرت بنت الصديق . ترى لو كانت عائشة تعلم مدى انطلاق فتنتها اكانت تقدم على ايقاظها ؟ ! ولكن هذا ما كان مقدرا فى سجل القدر . مكتوبا منذ الأزل .

وقام عبد الله بن عامر الحضرمى . وكان عامل عثمان على مكة . ليجيب أم المؤمنين فقال :

ـ هاأنذا لها اول طالب .

وابتدا الناس يتجمعون فى مكة حول عائشة ليناوئوا عليا . وليطالبوا بدم عثمان . وقدم عبد الله بن عامر من البصرة . ويعلى ابن امية من اليمن ومعه ستمائة بعير وستمائة الف درهم . فأناخ بالابطح معسكرا . وقدم طلحة والزبير فلقيا عائشة فقالت لهما :

ـ ما وراءكما ؟

- وراءنا اذا تحملنا بقلبنا هرابا من المدينة غوغاء واعراب وفارقنا قوما حيارى ، لا يعــرفون حقــا ولا ينكرون باطلا ، ولا يمنعون أنفسهم .

- فائتمروا امرا ، ثم انهضوا الى هذه الغوغاء .

ودخلت عائشة دارها . واجتمع عندها الزبير وطلحة وعبد الرحمن بن ابى بكر ومروان وعبد الله بن الزبير وبنو امية ووجوه القوم . واخذوا يتشاورون فى الأمر فقال القوم فيما ائتمروا به :

- نلحق بالشام .

فقال عبد الله بن عامر :

- قد كفاكم الشام من يستمر فى حوزته .

فقال له طلحة والزبير :

- فاين ؟

- البصرة ، فان لى فيها صنائع ، ولهم فى طلحة هوى .

- قبحك الله ، فوالله ما كنت بالمسالم ولا بالمحارب فهلا اقمت كما اقام معاوية فنكتفى بك . ونأتى الكوفة فنسد على هؤلاء القوم المذاهب .

فاطرق عبد الله بن عامر وقال بعض القوم

- نسير الى على فنقاتله .

- ليس لكم طاقة باهل المدينة .

واستمروا يديرون قداح الراى بينهم حتى استقر رايهم على الخروج الى البصرة ، وقالوا لام المؤمنين :

- يا ام المؤمنين ، دعى المدينة ، فان من معنا لا يقرنون لتلك الغوغاء التى بها ، واشخصى معنــا الى البصرة ، فانا نأتى بلدا مضيعا ، وسيحتجون علينا فيه ببيعة على بن ابى طالب فتنهضيهم

كما انهضت اهل مكة ، ثم تقعدين ، فان أصلح الله الأمر كان الذى تريدين والا احتسبنا ودفعنا عن هذا الأمر بجهدنا حتى يقضى الله ما اراد .

فوافقت عائشة ، وكان ازواج النبى معها على قصد المدينة ، فلما تحول رأيها الى البصرة تركن ذلك . وانطلق القوم بعدها الى حفصة يسألونها . فقالت :

ـ رأيى تبع لرأى عائشة .

وانطلق القوم يبحثون عن جمل شديد ، يحملون عليه أم المؤمنين ، ورأى يعلى جملا قويا فاتجه الى صاحبه وقال :

ـ يا صاحب الجمل ، تبيع جملك ؟

ـ نعم .

ـ بكم ؟

ـ بألف درهم .

ـ مجنون انت ، جمل يباع بألف درهم ؟ ! .

ـ نعم جملى هذا .

ـ ومم ذلك ؟

ـ ما طلبت عليه احدا قط الا ادركته ، ولا طلبنى وانا عليه احد قط الا فته .

ـ لو تعلم لمن نريده لأحسنت بيعنا .

ـ ولمن تريده ؟

ـ لأمك .

ـ لقد تركت امى فى بيتها قاعدة لا تريد براحا .

ـ انما اريده لأم المؤمنين عائشة .

ـ فهو لك ، فخذه بغير ثمن .

ـ لا · ولكن ارجع معنا الى الرحل فلتعطك ناقة مهرية ونزيدك دراهم ·

ورجع صاحب الجمل مع الرجال الى الرحل ليأخذ ناقة عائشة وستمائة درهم · ولم يبق الا الخروج ، فدخلت عائشة هودجها وحمل الهودج ووضع فوق الجمل ونادى المنادى :

ـ ان أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون الى البصرة ، فمن كان يريد اعزاز الاسلام ، وقتال المحلين ، والطلب بثار عثمان ، ولم يكن عنده مركب ، ولم يكن عنده جهاز ، فهذا جهاز وهذه نفقة ·

وارادت حفصة الخروج ، فأتاها عبد الله بن عمر ، فطلب اليها أن تقعد فقعدت ، وبعثت الى عائشة :

ـ ان عبد الله حال بيني وبين الخروج ·

فقالت عائشة :

ـ يغفر الله لعبد الله ·

ورأت أم الفضل ما يبيت لعلى أمير المؤمنين ، فلم تستطع صبرا بل كتبت له كتابا · واستأجرت رجلا من جهينة على أن يطوى ويأتى عليا بكتابها ، فانطلق الرجل ينهب الأرض ليبلغ أمير المؤمنين نبأ المتآمرين ·

وجمع الزبير بنيه قبل الرحيل ليودع بعضهم ، فأخرج عروة ومنذرا وعبد الله أبناء أسماء جميعا ، وقال للآخرين : يا عمرو اقم ، يا فلان اقم ، فلما رأى عبد الله ابن الزبير ذلك التفت الى أخويه وقال :

ـ يا عروة اقم · يا منذر اقم ·

فنظر الزبير الى عبد الله وقال :

ـ ويحك ، أستصحب ابنى واستمتع منهما ·

ـ ان خرجت بهم جميعـــا فاخرج ، وان خلفت عنهم احـــدا فخلفهما . ولا تعرض اسماء للثكل من بين نسائك ٠

فتركهما الزبير وضمهما الى صدره قبل أن ينطلق وقد غامت عيناه بالدموع . ترى هل كان يحس ان هذا هو اللقاء الاخير !

وابتـدا الرحيل . فسحت العيـون ، وجرت الدموع وارتفع النحيب والنشيج ، فما من خارج للقتـال الا وقد بكى . وما من شاهد للخروج الا ودمعه منهمر ، وحزنه تقيل ، فانه ليرى خروج المسلمين لقتال المسلمين . فلم ير يوم كان اكثر باكيا على الاسلام او باكيا له من ذلك اليوم . يوم النحيب ٠

★ ★ ★

خرج الركب ، وكان عبد الله بن الزبير يلتفت الى البيت العتيق بين لحظة واخرى . انه ليحس روحه قد شدت اليه ، وقبل ان يغيب البيت عنه قال :

ـ ما رأيت مثلك بركة طالب خير ، ولا هارب من شر ٠

واستمر القوم فى السير حتى قابلهم سعيد بن العاص ، خلا سعيد بطلحة والزبير وقال لهما :

ـ ان ظفرتما لمن تجعلان الامر ؟ أصدقانى ٠

ـ لأحدنا ايهما اختاره الناس ٠

ـ بل اجعلوه لولد عثمان ، فانكم خرجتم تطلبون بدمه ٠

فقالا فى استنكار :

ـ ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لابنائهم ؟

ورجع سعيد ولم يشا ان ينضم اليهم . فلمـا رأى المغيرة ذلك قال :

ـ الراى ما رأى سعيد ، من كان ههنا من ثقيف فليرجع ـ

واستأنف الركب سيره . وامتطى طلحة ناقته الحمراء وانطلق ليطالب بدم عثمان الذى كان يحاصره بنفسه ويؤلب القوم عليه .
وحان أوان الصـــلاة . فأذن مروان ثم جاء حتى وقف على طلحة والزبير وقال :

ـ أيكما أسلم بالأمر وأؤذن بالصلاة ؟

فقال عبد الله بن الزبير :

ـ على أبى عبد الله .

وقال محمد بن طلحة :

ـ بل على أبى طلحة .

وكاد الشقاق يقع لولا أن تداركت عائشة الأمر فأرسـلت الى مروان :

ـ مالك . أتريد أن تفرق أمرنا . فليصل ابن أختى .

فصلى عبد الله بن الزبير بالناس . وابتدأ يحس خطره . فراحت أفكار الزعامة تحتل فكره . وتتخايل له من آن لآن . ترى ما يكون الأمر . أيخلى الزبير بين طلحة والأمر . أم يخلى طلحة بين الزبير والأمر ؟

واستأنف القوم رحيلهم . وكانوا كلمـا مروا على ماء أو واد سألوا الدليل عنه حتى طرقوا ماء . فأخذت الكلاب تنبح . وسألوا الدليل :

ـ أى ماء هذا ؟

ـ ماء الحواب .

فعادت الذكرى بعائشـــة القهقرى . فتـــذكرت يوم قال النبى لنسائه . ليت شـــعرى أيتكن التى تنبحها كلاب الحواب . ففزعت وصرخت بأعلى صوتها

ـ انا والله صاحبة كلاب الحواب طروقا • ردونى ، ردونى ، انا صاحبة كلاب الحواب ردونى •• ردونى •

وضربت عضد بعيرها فاناخته ، فناخ الناس حولها • وانقضى يوم وعائشة لا تبرح مكانها ، ولا تنثنى عن عزمها ، بل تطلب منهم ان يردوها • وانقضى الليل ، وقبل ان تشرق الشمس كان عبد الله ابن الزبير قد فكر ودبر ، فجاء ام المؤمنين وهو يصيح :

ـ النجاة •• النجاة ، فقد أدرككم والله على بن أبى طالب •

فارتحل القوم ، وانطلقت عائشة بنت الصديق ، وعبد الرحمن ابن الصديق ، والزبير زوج أسماء ، وطلحة زوج ام كلثوم ، وعبد الله حفيد الصديق الى البصرة لمناوأة على ، ولم يكن فى معسكر على من ابناء أبى بكر الا محمد ، انطلق القوم الى الغيب المجهول ، انطلقوا وما دار بخلدهم انهم جميعا سيخرجون منها سقر اليدين ، وانهم سيقتلون ويقتلون • لينالها غيرهم ، ولكن ذلك كان فى سجل القدر مكتوبا •

الفصل الرابع والعشرون

فى البصرة

بلغت ام المؤمنين البصرة ، وقابلت وجوه القـــوم ، فما درى عثمان بن حنيف عامل على على البصرة ما يفعل . ايقاتل القوم ، ولكن لعل ذلك لا يوافق أمير المؤمنين ، ام يسالهم حتى يصل الامام فيعالج الأمر بما يحلو له ؟ واخيرا قر رايهم على ان يبعث الى ام المؤمنين عمران بن حصين ، وكان رجل عامة ، وابا الأسود الدؤلى وكان رجل خاصة ليعلما له علمها وعلم من معهـا . فانطلقا حتى انتهيا الى ام المؤمنين وكانت بالحفير والنـاس عندها . فاستاذنا فاذنت لهما فسلما وقالا :

ـ ان اميرنا بعث اليك نسالك عن مسيرك ، فهل انت مخبرتنا ؟

ـ والله ما مثلى يسير بالأمر المكتوم ، ولا يغطى لبنيه الخبر ، ان الغوغاء من اهل الأمصار ، ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ واحدثوا فيه الأحداث ، وآووا فيه المحدثين ، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله . مع ما نالوا من قتل امام المؤمنين بلا ترة وعذر ، فاستحلوا الدم الحرام رسفكوه ـ وانتهبوا المال الحرام ، واحلوا البلد الحرام ، والشـهر الحرام . ومزقوا الأعراض ، واقاموا فى دار كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين ، غير نافعين ولا متقين ، لا يقدرون على امتناع ولا يامنون ، فخرجت

فى المسلمين أعلمهم ما اتى هؤلاء القوم ، وما فيه الناس وراءنا ، وما ينبغى لهم ان يأتوا فى اصلاح هذا ٠

وخرجا من عند عائشة وانطلقا الى طلحة فقالا :

ـ ما أقدمك ؟

ـ الطلب بدم عثمان رضى الله عنه ٠

ـ لم تبايع عليا ؟

ـ بلى ٠ واللج على عنقى ، وما استقبل عليـا ان هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان ٠

وقابلا الزبير ثم انطلقا الى عائشة ليودعاها ، فودعت عمران والتفتت الى ابى الاسود وقالت :

ـ يا ابا الأسود ، اياك ان يقودك الهوى الى النـار ، « كونوا قوامين لله شهداء بالقسط » ٠

وخرج الرجلان وقد تبلبلت افكارهما ، فما يفعلان ؟ اينضمان الى عائشة فيقاتلان امير المؤمنين وابن عم الرسـول ، أم ينضمان الى على فيقاتلان زوجة الرسول وحوارى الرسول ، ومن ذب عن الرسول يوم أحد حتى اصيبت يده ٠ والله انها لحيرة كبرى .وفكر عمران أن يعتزل ، وكان هوى ابى الأسود مع على ، فلما دخلا على عثمان بن حنيف قال ابو الأسود :

يا بن حنيف قد اتيت فانفر وطاعن القوم وجالد واصـبر
وابرز لهم مستلئما وشـمر

فاطرق عثمان قليلا ، ثم رفع رأسه وقال :

ـ انا لله وانا اليه راجعون ، دارت رحى الاسلام ورب الكعبة ، فانظروا بأى زيفان تزيف ٠

فقال عمران فى اسى :

– اى والله لتعـــركنكم عركا طويلا ثم لا يســـاوى ما بقى منكم شىء .

فالتفت عثمان الى عمران وقال :

– اشر على يا عمران .

– انى قاعد فاقعد .

ولكن عثمان تذكر انه عامل على فقال

– بل امنعهم حتى يأتى امير المؤمنين .

– هل يحكم الله ما يريد .

وانصرف عمران الى بيتــه ليعتزل الفتنـــة . وهب عثمان بن حنيف ليتهيأ لقتـــال الذين وفدوا على البصرة ليؤلبوا القـــوم على امير المؤمنين . ورأى هشام بن عامر عزم ابن حنيف . فدخل عليه وقال : .

– يا عثمان ان هذا الأمر الذى تروم يسلم الى شر مما تكره ان هذا فتق لا يرتق ، وصدع لا يجبر فسامحهم حتى يأتى امر على ولا تحادهم .

– لا .

ونادى عثمان فى الناس . وامرهم بالتهيؤ ، ولبســوا السلاح وانطلق القوم الى المسجد الجامع ، ودس عثمـــان خطيبـــا ليعد الناس عن ام المؤمنين ومن معهـــا . فلما دخل النـــاس الجامع قام الخطيب وقال :

– انا قيس بن العقدية الحميسى ، ان هؤلاء القوم الذين جاءوكم ان كانوا جاءوا خائفين . فانهم جاءوا من المكان الذى يأمن فيه الطير . وان كانوا جاءوا يطلبون بدم عثمان رضى الله عنه فما نحن بقتلة عثمان . اطيعونى فى هؤلاء القوم . فردوهم من حيث جاءوا

فاثلج قوله صدر عثمان بن حنيف ، فقد بان الرضا فى وجوه القوم . ولكن ما كاد خطيب عثمان يصمت حتى هب آخر وقال :

ـ اوزعموا انا قتلة عثمان رضى الله عنه ؟ ! فانما فزعوا الينا يستعينون بنا على قتلة عثمان منا ومن غيرنا . فان كان القوم اخرجوا من ديارهم كما زعمت فمن يمنعهم من اخراجهم الرجال او البلدان .

واقبلت عائشة ومن معها حتى انتهوا الى المربد فوقفوا هناك . وخرج عثمان فيمن معه . وانطلق الى عائشة من شاء ان ينضم اليها من اهل البصرة . ثم تكلم طلحة فالزبير . ثم قامت عائشة فرعت الجميع السمع . وما ابتدأت حتى استولت على الافئدة ، فقد كانت جهورية الصوت . ساحرة الالقاء . فما انتهت من قولها حتى افترق اصحاب عثمان بن حنيف فرقتين . فرقة ثبتت مع ابن حنيف وفرقة انضمت الى ام المؤمنين . وتقدم جارية بن قدامة السعدى الى عائشة وقال :

ـ يا ام المؤمنين . والله لقتل عثمان بن عفان اهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح . انه كان لك من الله ستر وحرمة . فهتكت سترك ، وابحت حرمتك . انه من رأى قتالك فانه يرى قتلك . ان كنت اتيتنا طائعة فارجعى الى منزلك ، وان كنت اتيتنا مستكرهة فاستعينى بالناس .

فلم تابه عائشة له . وخرج غلام الى طلحة والزبير وقال :

ـ اما انت يا زبير فحوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم . واما انت يا طلحة فوقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدك . وارى امكما معكما . فهل جئتما بنسائكما ؟

ـ لا ..

ـ فما انا منكما فى شيء ٠

واعتزل وقال :

صنتم حلائلكم وقدتم امكم   هذا لعمرك قلة الانصاف

واقبل غلام على محمد بن طلحة يسأله :

ـ اخبرنى عن قتلة عثمان ٠

فالتفت محمد بن طلحة اليه ، وكان محمد رجلا تقيا ، وقال :

ـ نعم ٠ دم عثمان ثلاثة اثلاث : ثلث على صاحبة الهودج ، وثلث على صاحب الجمل الأحمر (طلحة) وثلث على علىّ بن أبى طالب ٠

فضحك الغلام وقال :

ـ الا أرانى على ضلال ٠

ولحق بعلى ٠

واقتتل أنصار ام المؤمنين وأنصار على ، وانتصر انصار عائشة تخيرة واستتب الأمر لهم فى البصرة ، وقام الزبير ليتكلم فاظهر عيب على ، فقام اليه رجل من عبد القيس فقال :

ـ ايها الرجل أنصت حتى نتكلم ٠

فقال عبد الله بن الزبير :

ـ وما لك وللكلام ؟

ـ يا معشر المهاجرين ، أنتم أول من أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لكم بذلك فضل ، ثم دخل الناس فى الاسلام كما دخلتم ، فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بايعتم رجلا منكم ، والله ما استامرتمونا فى شيء من ذلك ، فرضينا واتبعناكم فجعل الله عز وجل للمسلمين فى امارته بركة ، ثم مات رضى الله عنه واستخلف عليكم رجلا منكم ، فلم تشاورونا فى ذلك فرضينا

وسلمنا . فلما توفى الأمير جعل الأمر الى ستة نفر فاخترتم عثمان ، وبايعتموه عن غير مشورة منا . ثم بايعتم عليا من غير مشــورة ، فما الذى نقمتم عليه فنقاتله ؟ هل استأثر بفىء أو عمل بغير الحق او عمل شيئا تنكرونه فنكون معكم عليه . والا فما هذا ؟

فضاقت صدور القوم وثارت ثائرتهم وهموا بقتل الرجل . ولكن قام من دونه عشيرته . فصــبر القوم وقد عزموا على امر . وانقضى اليوم فلم يستطيعوا أن ينسوا ذلك الرجل الذى افحمهم . وبزغت شمس اليوم الثانى . فخرجوا لقتله ولكنهم وجدوا أناســا معــه ، فهجموا على الرجل فقتلوه وقتلوا معه سبعين رجلا .

واختلفوا فى الصلاة فأمرت عائشة عبد الله بن الزبير فصــلى بالناس . لقد كانت عائشة تخصه بالخير فكانت تدعوه ابنها . وتحبه كل الحب .. ترى هل كانت تطمع فى أن تنــادى به اميرا للمؤمنين ؟ وأصبح بيت المال فى أيدى انصار عائشة . فشــاء الزبير أن يعطى الناس ارزاقهم . وتقسيم ما فى بيت المال . فالتفت اليه ابنه عبد الله وقال :

ـ ان ارتزق الناس تفرقوا .

وأخذوا يفكرون فيمن يصبرونه على بيت المال . فاصطلحوا على عبد الرحمن بن ابى بكر . فولى بيت المال .

الفصل الخامس والعشرون

في الكوفة

خرج محمد بن أبى بكر ، ومحمد بن جعفر عن الربذة ، وانطلقا برسالة على الى الكوفة . وأغذا فى السير حتى دخلا على الناس فقام محمد بن ابى بكر فى المسجد يقرأ كتاب أمير المؤمنين .

ـ انى اخترتكم على الامصار وفزعت اليكم لما حدث ، فكونوا لدين الله اعوانا وانصارا . وأيدونا وانهضوا الينا ، فالاصلاح ما نريد لتعود الامة اخوانا . ومن احب ذلك وآثره فقد احب الحق وآثره . ومن ابغض ذلك فقد ابغض الحق وغمصه .

ونزل محمد عن المنبر وراح يحادث وجوه القوم . وراح محمد ابن جعفر يزين للناس الخروج . ويطلب منهم ان ينفروا الى على ولكن الناس لم يجيبوهما الى شيء . فلما جاء المساء دخل ناس على ابى موسى الاشعرى عامل الكوفة وقالوا له :

ـ ما ترى فى الخروج ؟

فقال :

ـ كان الرأى بالامس ليس باليوم . ان الذين تهاونتم به فيما مضى هو الذى جر عليكم ما ترون ، وما بقى انما هما أمران ، القعود سبيل الآخرة . والخروج سبيل الدنيا فاختاروا .

وبلغ محمد بن ابى بكر ان ابا موسى يثبط الناس عنهم ، فثار ودخل ومحمد بن جعفر عليه ، واغلظا له فى القول . فقال

ـ والله ان بيعة عثمان رضي الله عنه لفي عنقي وعنق صاحبكما . فان لم يكن بد من قتال . لا نقاتل احدا حتى يفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا .

وفشلا في سفارتهما فلم ينفر أحد لنصرة علي . فعادا ليبلغا أمير المؤمنين ما فعل أبو موسى . فوافياه بذي قار . فوفد الاشتر وابن عباس الى الكوفة ليكلما ابا موسى . فاستمر أبو موسى يكفكف الناس عن علي . فعاد ابن عباس بالخبر . فدعا أمير المؤمنين ابنه الحسن فارسله وأرسل معه عمار بن ياسر . وبلغ أبا موسى وصول الحسن فخرج لاستقباله . فلما لقيه ضمه اليه وانطلقوا الى المسجد . واقبل أبو موسى على عمار فقال :

ـ يا أبا اليقظان . اعدوت فيمن عدا على أمير المؤمنين . فأحللت نفسك مع الفجار ؟

ـ لم افعل . ولم يسوءني .

وكاد الحديث بينهما يشتد . ولكن الحسن قطعه عليهما . فأقبل على أبي موسى وقال :

ـ يا أبا موسى ، لم تثبط الناس عنا . فوالله ما اردنا الا الاصلاح . ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء .

ـ صدقت بأبي انت وامي . ولكن المستشار مؤتمن . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : انها ستكون فتنة . القاعد فيها خير من القائم . والقائم خير من الماشي . والماشي خير من الراكب . وقد جعلنا الله عز وجل اخوانا . وحرم الله علينا اموالنا ودماءنا .

فظهر الغضب في وجه عمار فقام وقال :

ـ يايها الناس ، انما قال له خاصة . أنت فيها قاعدا خير منك قائما .

فارتفع صوت من المسجد :

ـ اسكت أيها العبد . أنت امس مع الغوغاء ، واليوم تسافه اميرنا .

فثار اناس لعمار ، وثار اناس ضده ، فجعل ابو موسى يكفكف الناس ، ثم انطلق حتى اتى المنبر ، وهدأ القوم ، واقبل رسول عائشة الى أهل الكوفة على حمار ، فوقف بباب المسجد ، وترجل وربط حماره ثم انطلق الى المنبر ليقرأ على الناس كتاب أم المؤمنين :

ـ اما بعد فثبطوا ايها الناس ، واجلسوا فى بيوتكم الا عن قتلة عثمان بن عفان رضى الله عنه .

واستمر فى قراءته ، حتى اذا ما انتهى قال :

ـ امرت بأمر ، وأمرنا بأمر : أمرت أن تقر فى بيتها ، وأمرنا ان نقاتل حتى لا تكون فتنة ، فأمرتنا بما أمرت به ، وركبت ما أمرنا به .

فظهرت الدهشة فى وجوه الجميع ، فما كان يظن أن يكون قائل هذا القول رسول عائشة ، ولما أفاق الناس من دهشتهم صاح أحدهم :

ـ ما أمرت الا بما أمر الله عز وجل به : بالاصلاح بين الناس.

فثارت ضجة فى المسجد ، فقام ابو موسى وقال :

ـ أيها الناس ، أطيعونى تكونوا جرثومة من جراثيم العرب يأوى اليكم المظلوم ، ويأمن فيكم الخائف ، انا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أعلم بما سمعنا . ان الفتنة اذا اقبلت شبهت ، واذا ادبرت بينت ، وان هذه الفتنة باقرة كداء البطن تجرى بها نحو

الشمال والجنوب . والصبا والدبور ، فتسكن احيانا فلا يدرى من اين تؤتى ، تذر الحليم كابن أمس . شيموا سيوفكم ، واقصدوا رماحكم ، وارسلوا سهامكم ، واقطعوا أوتاركم ، والزموا بيوتكم . خلوا قريشا اذا ابوا الا الخروج من دار الهجرة وفراق أهل العلم بالامرة ، ترتق فتقها ، وتشعب صدعها ، فان فعلت فلأنفسها سعت فعلى انفسها جنت ، سمنها تهريق فى اديمها ، استنصحونى ولا تستغشونى ، واطيعونى يسلم لكم دينكم ودنياكم . ويشقى بحر هذه الفتنة من خباها .

فقام رجل وصاح فى الناس :

ـ سيروا الى أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، وانفروا اليه أجمعين ، تصيبوا الحق .

فقام القعقاع بن عمرو فقال :

ـ انى لكم ناصح ، وعليكم شفيق ، احب ان ترشدوا ، ولأقولن لكم قولا هو الحق ، لا بد من امارة تنظم الناس ، وتزع الظالم وتعز المظلوم ، وهذا على يلى بما ولى ، وقد انصف فى الدعاء ، وانما يدعو الى الاصلاح ، وكونوا من هذا الأمر بمرأى ومسمع .

وقام رجل يؤيد القعقاع :

ـ ايها الناس ، انه لا بد لهذا الأمر ولهؤلاء الناس من وال ، يدفع الظالم ، ويعز المظلوم ، ويجمع الناس ، وهذا واليكم يدعوكم لينظر فيما بينه وبين صاحبيه ، وهو المأمون على الأمة الفقيه فى الدين ، فمن نهض اليه فانا سائرون معه .

وانشرح صدر عمار والحسن ، فقد رأيا الناس يميلون الى الخروج معهما ، فقام عمار وقال :

ـ هذا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يستنفركم

الى زوجة رسول الله والى طلحة والزبير ، وانى أشهد انها زوجته فى الدنيا والآخرة فانظروا ثم انظروا فى الحق . فقاتلوا معه .

فصاح رجل ممن له مع عائشة هوى :

ـ يا ابا اليقظان ، لهو مع من شهدت له بالجنة على من لم تشهد له .

فالتفت الحسن الى ابى اليقظان عمار ، وهمس :

ـ اكفف عنا يا عمار ، فان للاصلاح اهلا .

وقام الحسن ليصلح ما افسده عمار ، فتطلع الناس اليه ، واعاروه سمعهم ، وساد المسجد سكون ، ثم ارتفع صوت الحسن :

ـ يا ايها الناس ، أجيبوا دعوة اميركم ، وسيروا الى اخوانكم ، فانه سيوجد لهذا الأمر من ينفر اليه ، والله لان يليه أولو النهى أمثل فى العاجلة ، وخير فى العاقبة ، فأجيبوا على دعوتنا ، واعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم .

فقام رجل من وجوه القوم فقال :

ـ ان أمير المؤمنين قد دعانا ، وارسل الينا رسله حتى جاءنا ابنه ، فاسمعوا الى قوله ، وانتهوا الى أمره ، وانفروا الى اميركم ، فانظروا معه فى هذا الامر ، وأعينوه برايكم .

وقام آخر فقال :

ـ ايها الناس اجيبوا أمير المؤمنين ، وانفروا خفافا وثقالا ، مروا انا أولكم .

فقام الحسن فقال :

ـ أيها الناس ، انى غاد ، فمن شاء منكم ان يخرج معى على الظهر ، ومن شاء فليخرج فى الماء .

فنفر الناس لينضموا الى أمير المؤمنين ، وانطلقوا جميعا حتى

وامره بذى قار . ودعا الامام القعقاع بن عمـرو وكان من اصحاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم وقال له :

ــ اذهب الى أهل البصرة ، والق هذين الرجلين ، فادعهما الى الالفة والجماعة وعظم عليهما الفرقة .

ــ افعل .

ــ كيف انت صانع فيما جاءك منهما مما ليس عندك فيه وصاة منى ؟!

ــ نلقاهم بالذى امرت به ، فاذا جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأى ، اجتهدنا بالرأى ، وكلمناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغى .

ــ انت لها .

وخرج القعقاع الى البصرة ، فلما دخلها بدأ بعائشة رضى الله عنها ، فسلم عليها وقال لها :

ــ اى امه ، ما اشخصك ، وما اقدمك هذه البلدة ؟

ــ أى بنى اصلاح ما بين الناس .

ــ فابعثى الى طلحة والزبير حتى تسمعى كلامى وكلامهما .

فبعثت أم المؤمنين اليهما ، فلما جاءا وجلسا ، التفت اليهمـا القعقاع وقال :

ــ انى سالت ام المؤمنين ما اشخصها وما اقدمها هـذه البلاد فقالت : اصلاح بين الناس ، فما تقولان انتما امتابعان ام مخالفان ؟

ــ متابعان .

ــ فتخبرانى ما وجه هذا الاصـــلاح ، فوالله لئن عرفنـــاه لنصلحن ، وان انكرناه لا نصلح .

ــ قتلة عثمان رضى الله عنــه ، فان هـــذا ان ترك كان تركا للقرآن ، وان عمل به كان احياء للقرآن .

ـ قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة . وأنتم قبل قتلهم اقرب الي الاستقامة منكم اليوم . قتلتم ستمائة الا رجلا فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم . وخرجوا من بين أظهـــركم . وطلبتم ذلك الذى افلت فمنعه ستة الاف وهم على رجل . فان تركتموه كنتم تاركين لما تقولون . فان قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فاديلوا عليكم فالذى حذرتم وقربتم به الامر اعظم مما أراكم تكرهون .

فأطرقت أم المؤمنين ثم رفعت رأسها وقالت للقعقاع :

ـ فتقول أنت ماذا ؟

ـ اقول هذا الأمر دواؤه التسكين . واذا سكن اختلجوا . فان انتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة . ودرك بثأر هذا الرجل . وعافية وسلامة لهذه الأمة . وان انتم أبيتم الا مكابرة هــذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر . وذهاب هذا الثأر . وبعثة الله فى هذه الامة هزاهزها . فآثروا العافية ترزقوها . وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون . ولا تعرضونا للبلاء . ولا تعرضوا له فيصرعنا واياكم . وايم الله انى لأقول هذا وأدعوكم اليه وانى لخائف الا يتم حتى يأخذ الله عز وجل حاجته من هذه الامة التى قل متاعها . ونزل بهـا ما نزل . فان هــذا الأمر الذى حدث امر ليس بقـدر وليس كالأمور . ولا كقتل الرجل . ولا النفر الرجل ولا القبيلة الرجل .

فقالوا جميعا :

ـ نعم . اذا قد أحسنت وأصبت المقالة . فارجع فان قدم على وهو على مثل رايك صلح هذا الامر .

وقام القعقاع مسرورا . فقد حسب انه قد وفق الى حقن دماء المسلمين . وقفل عائدا الى أمير المؤمنين وقص عليـه ما جرى . فأعجبه ذلك . وبات الناس وقد حسبوا ان الصلح منهم قريب .

الفصل السادس والعشرون

الجمــل

ذاع في معسكر على نبأ اتفاق القوم على الصلح ، فأظهر الناس سرورهم . وقام على وخطبهم وقال :

ـ الا وانى راحل غدا فارتحلوا ، الا ولا يرتحلن غدا أحد أعان على عثمان رضى الله عنه بشيء في شيء من أمور الناس ، وليغن السفهاء عنى انفسهم ٠

وكان ابن سبأ الذى قلب الأمصار على عثمان يستمع الى خطبة على ، فساءه أن يكون صلحا ، انه ليود الفرقة للمسلمين ، وانه ليعمل على توسيع شقة الخلاف بينهم مذ اسلم . فما بال القوم يفكرون في الاتفاق . ان هذا لن يكون ، وانطلق ابن سبأ يفكر ، فوسوس له شيطانه أن يجمع من اشترك فى قتل عثمان ، ليوغر صدورهم على هذا الصلح فيعملوا على تعكيره وعدم وقوعه ٠

واجتمع نفر ممن مشوا الى عثمان . وراحوا يديرون قداح الراى بينهم . فقالوا :

ـ ما الراى وهذا والله على ، وهو ابصر الناس بكتاب الله ممن يطلب قتلة عثمان . واقربهم الى العمل بذلك ، وهو يقول ما يقول ، ولم ينفر اليه سوانا والقليل من غيرنا ، فكيف به اذا شام القوم وشاموه . واذا راوا قلتنا فى كثرتهم ؟

فقال أحدهم :

ـ رأى الناس فينا والله واحد . وان يصطلحوا وعلى فعلى دمائنا . فهلموا فلنتواثب على على فنلحقه بعثمان فتعود فتنة يرضى منا فيها بالسكون . فقال ابن سبأ :

ـ بئس الرأى رأيت .

واستمر القوم فى حوار . وكاد عقدهم ينفرط دون أن يتخذوا قرارا . فقال احدهم

ـ ابرموا اموركم قبل أن تخرجوا . ولا تؤخروا امرا ينبغى لكم تعجيله ، ولا تعجلوا أمرا ينبغى لكم تأخيره ، فانا عند الناس شر المنازل . فما أدرى ما الناس صانعون غدا اذا ما هم التقوا .

فقال ابن السوداء ما كان بيت العزم عليه :

ـ ان عزكم فى خلطة الناس . فصانعوهم . واذا التقى الناس غدا . فانشبوا القتال . ولا تفرغوهم للنظر . فاذا من انتم معه لا يجد بدا من ان يمتنع . ويشغل الله عليا وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون .

فأعجبهم الرأى ، وعزموا عليه . وانصرفوا جميعا يبيتون الغدر . وانصرف ابن سبأ كما ينصرف الشيطان بعد ان تتم غوايته .

وسار على . وانطلق حتى نزل بحيال جيوش عائشة وطلحة والزبير . فنزلت القبائل الى قبائلهم مضر الى مضر . وربيعة الى ربيعة . واليمن الى اليمن . وكانت تباشير الصلح تلوح فى الافق فقد كان بعضهم يخرج الى بعض ولا يتحادثون الا فى الصلح ومشت السفارات بين المعسكرين واصبح الصلح امرا مؤكدا . ولا شبهة فيه . وأقبل الليل . ونام الناس . وراح عبد الله بن سبأ يعمل على انفاذ ما بيت بليل . فوضع رجلا قريبا من على . وفضل ان سد

الصبح فى التنفس ، خرج اتباع ابن سبأ فغدوا مع الغلس ، وانسلوا الى المعسكر الآخر انسلالا ، وراح المضريون بضعون سيوفهم فى المضريين ، واليمانيون فى اليمانيين ، واهل ربيعة فى اهل ربيعة ، فثار العسكر ، وانتشرت الجلبة ، فخرج على يسال عن الخبر ، فقال له الرجل الذى وضعه ابن سبأ :

ــ ما فجئنا الا وقوم منهم بيتونا فرددناهم من حيث جاءوا ، فوجدنا القوم على رجل فركبونا وثار الناس .

فدعا على صاحب ميمنته وميسرته وقال

ــ لقد علمت ان طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ، ويستحلا الحرمة ، وانهما لا يطاوعاننا .

واستمر السبأية ينشبون القتال وعلى يصيح :

ــ ايها الناس كفوا .

واسرع رجل الى عائشة فلما دخل عليها صاح

ــ ادركى فقد ابى القوم الا القتال لعل الله يصلح بك .

فاخذت عائشة تتأهب للخروج ، وجعل الناس يلبسون هودجها الأدراع ، ودعا الزبير ابنه عبد الله وقال له :

ــ يا بنى ، انه لا يقتل اليوم الا ظالم او مظلوم ، وانى لا ارانى الا سأقتل اليوم مظلوما ، وان من اكبر همى لدينى ، افترى ديننا يبقى من مالنا شيئا ؟ يا بنى بع مالنا ، واقض دينى واوص بالثلث فان فاضل من مالنا من بعد قضاء الدين شىء فثلثه لولدك ، يا بنى ان عجزت عن شىء منه فاستعن عليه مولاى .

فنظر عبد الله الى ابيه وقال :

ــ يا ابة ومن مولاك ؟

ــ الله .

ـ الله ؟

وتذكر الزبير ما حدث بينه وبين على لما التقى الجمعان . وخروج على اليه ودنوه منه وقوله : « أتذكر يوم مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى غنم فنظر الى فضحك وضحكت اليه فقلت : لا يدع ابن ابى طالب زهوه ، فقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انه ليس به زهو ولتقاتلنه وانت له ظالم » ، وتذكر قوله لعلى : « اللهم نعم ، ولو ذكرت ما سرت مسيرى هذا ، والله لا اقاتلك ابدا » ، وتذكر رجوعه الى عائشة وقوله لها : « ما كنت فى موطن منذ عقلت الا وأنا أعرف فيه امرى غير موطنى هذا » . وقولها له : فما تريد ان تصنع ؟ ، ورده عليها : « اريد أن ادعهم واذهب » ، ورأى بعين خياله ابنه عبد الله وهو يصيح فيه : « جمعت بين هذين الغاوين حتى اذا حدد بعضهم لبعض أردت ان تتركهم وتذهب . أحسست رايات ابن ابى طالب ، وعلمت أنها تحملها فتية انجاد » . فأحس الدم يفور فى عروقه ، وراح يفكر فيما قاله لابنه : « انى قد حلفت ألا اقاتله » ، فلم يثن ذلك عبد الله بل قال له : « كفر عن يمينك وقاتله » ، ان الزبير ليحس حرجا ، وانه لمدفوع لقتال على دفعا . ان فكرة ترك الميدان تتحايل له . ولولا عبد الله ابنه لما أعتق غلامه ليحل يمينه فيقوم فى الصف مع المقاتلين . ودارت رحى المعركة ، والزبير يقاتل كارها ، واقبلت عائشة على هودجها . فلم تلبث ان سمعت غوغاء شديدة فقالت :

ـ ما هذا ؟

قالوا : ضجة العسكر .

ـ بخير أو بشر ؟

ـ بشر .

وانطلقت الى المعركة · وقالت للآخذ بخطام ناقتها :

ـ خل يا كعب عن البعير ، وتقدم بكتاب الله عز وجل ، فادعهم اليه ·

فانطلق كعب يحمل المصحف ويدعوهم الى كتاب الله · فخشى اصحاب ابن سبأ الصلح فرشقوه رشقا واحدا فقتلوه ، وراحوا يرمون عائشة فى هودجها ، فجعلت تنادى :

ـ يا بنية ، البقية البقية ، الله الله ، اذكروا الله عز وجل والحساب ·

ولكن انصار ابن سبأ صموا آذانهم ، واستمروا فى قتالهم فقالت عائشة للناس :

ـ ايها الناس ، العنوا قتلة عثمان واشياعهم ·

وراحت تدعو وضج اهل البصرة بالدعاء ، وسمع على بن ابى طالب جلبة ، فقال :

ـ ما هذه الضجة ؟

ـ عائشة تدعو ويدعون معها على قتلة عثمان واشياعهم ·

فدعا على :

ـ اللهم العن قتلة عثمان واشياعهم ·

ورأت عائشة عزم القوم على القتال فذمرت الناس ، واستعر اوار المعركة ، فراح الناس يسقطون صرعى مجدلين تحت ضربات السيوف البتارة ، فيا للمسلمين يضرب كل اهله ·

واستمرت المعركة الرهيبة ، وتقارعت السيوف ، ووقف طلحة يقول لما راى انهزام من معه :

ـ الى عباد الله ، الصبر الصبر ·

فمر به القعقاع فالفاه جريحا فقال له :

ـ يا ابا محمد . انك لجريح . وانك عما تريد لعليل . فادخل الأبيات .

ورأى الزبير قسوة ، وسقوط المسلمين قتلى من الفريقين فانقبض ، وتغلبت عليه فكرة الانسحاب ، وترك الميدان . فانسحب وانطلق الى وادى السباع .

واشتد جرح طلحة عليه ، فالتفت الى غلامه وقال .

ـ يا غلام ادخلنى ، وابغنى مكانا .

وانهزم اهل البصرة ، وشاءوا التقهقر ولكنهم وجدوا جمل عائشة منتصبا . فالتفوا حوله وراحوا يقاتلون دونه وكان لا يأخذ بخطام الجمل احد الا قتل ، وتقدم رجل فاخذه فقتل ، وتقدم آخر فاخذه فصرع . ومشى عبد الله بن الزبير وبه سبع وثلاثون جراحة من ضربة وطعنة حتى اقترب من الجمل ، فاخذ بالخطام فسألت عائشة :

ـ من انت؟

ـ عبد الله بن الزبير .

ـ واثكل أسماء .

واحست عائشة خيفة ، انها لتخشى ان يسقط عبد الله احب الناس اليها ، فانتابها قلق ، وارهفت منها الحواس ، ومر الأشتر بعبد الله ، فقفز عبد الله عليه ، فعانقه فسقطا جميعا ، وضاع الخطام من يد عبد الله ، ففزعت عائشة وخافت عليه القتل ، واخذ عبد الله بن الزبير والاشتر يتصارعان ، وهتف ابن الزبير :

ـ اقتلونى واقتلوا مالكا معى .

ورأى على ثبات الناس حول الجمل ، فهتف :

ـ اعقروا الجمل ، فانه ان عقر تفرقوا ٠

وحمل الناس على الجمل ، وضربه رجل فسقط ، فتفار الناس من حوله . فاسرع القعقاع وتفر معه بانزال الهودج عن ظهر البعير، وتركوه بين القتلى وكأنه قنفذ مما رمى فيه من النبــل ، وأمر على محمد بن ابى بكر ان ينطلق الى اخته ليحملها بعيدا عن القتــلى وقال له :

ـ انظر هل وصل اليها شيء ؟

فانطلق محمد وعمار بن ياسر حتى اتيا الهودج . فادخل راسه فيه فقالت عائشة :

ـ من أنت ؟ ويلك ؟

ـ ابغض اهلك اليك ٠

ـ من ؟

ـ أخوك البر ٠

ـ عقوق ٠

وقال عمار بن ياسر :

ـ كيف رايت ضرب بنيك اليوم يا أمة ؟

ـ من أنت ؟

ـ أنا ابنك البار عمار ٠

ـ لست لك بأم ٠

ـ بلى وان كرهت ٠

وهدأت نفس عائشة ، ونظرت الى محمد وغمغمت :

ـ الحمد لله الذى عافاك ٠

وحمل الهودج من بين القتلى ووضعوه بعيدا ينتظرون أوامر على فيه ، وأقبل الليل ، ونشر لواءه الأسود على ميــدان القتال .

فحجب القتـلى ، فجاء علي ومعـه قنبر وفي يده مشـعلة من نار يتصفح القتلى ، حتى وقف على طلحة ، فظهر الحزن في وجهه ، وقال :

ـ أعزز على أبا محمد أراك معفرا تحت نجوم السماء ، وفي بطـون الاودية . شـفيت نفسي ، وقتلت معشرى ، الى الله أشكو عجرى ·

واستمر يتصـفح القتـلى ، ويستغفر لهم ثم أمر أن يجمعـوا ليصلي عليهم أجمعين ·

وانتهى على الى عائشة فقال لها :

ـ اى أمة ، يغفر الله لنا ولكم ·

ـ غفر الله لنا ولكم ·

والتفت على الى محمد بن ابى بكر و عمار بن ياسر وقال لهما :

ـ ادخلاها البصرة ·

فانطلق محمد بعائشة في سكون الليل الى البصرة ، فانزلها في دار عبد الله بن خلف . وتسلل الجرحى في جوف الليل الى البصرة ، ولاذ بعضهم بعائشة . واقبل النـاس حتى التج بهم الدار ، واخذت عائشة تسال عن عدة من الناس ، فكانت كلما نعى لها منهم واحد قالت :

ـ يرحمه الله ·

حزنت عائشة لقتل طلحة فقد ترملت أختهـا أم كلثوم ونيتمت ابنتها الصغيرة ، وانتابها قلق شديد ، فانها لم تدر بعد ما لحق ابن الزبير بعد أن تصارع والأشتر ، وضربه الأشتر ضربة شديدة على راسه ، ترى هل قتل فتكلته أسماء ، أم هام على وجهه مع الهائمين. واستمر قلق عائشة شديدا . ومما زاد في اضطرابها وقلقهـا نعى

الناعى للزبير ، فقد قتل غدرا فى وادى السباع . فهل كتب على اسماء ان تفقد الأب والابن ؟ • واستمر قلق عائشة ، وانصرم النهار ولم تعلم ما حدث لعبد الله . وأقبل الليل . وأقبلت الهموم . ان نفس عائشة لتعتصر حزنا ، فما جنت من خروجها الا الأحزان . قتل الزبير حوارى الرسول ، وقتل طلحة رب الجود ، وعقدت ابنها عبد الله . ترى هل فقدته حقا ؟ وما فكرت فى هذا حتى تطرعت واحست وطأة الحزن الثقيل • انها لتحب عبد الله ، وانها كانت تحب له الصدارة . أما أمرت ان يصلى بالناس وفيهم الزبير وطلحة وخيار صحابة الرسول ؟ واستمر اضطرابها وقلقها فلم تذق كثير غمض . وانقضى الليل باحزانه وهمومه ، واسفر النهار وابتدأ الناس يفدون الى الدار التى فيها أم المؤمنين . واقبل رجل والتمس الاذن بالدخول لامر هام . فاذنت له فدخل واقترب منها وقال :

ـ ان عبد الله بن الزبير فى دارى•

فتهللت أسارير وجهها . وظهر البشر فى محياها • ان عبد الله حى يرزق • وخطر لها ان تدعو اخاها محمد بن ابى بكر فقالت :

ـ على بمحمد •

فالتفت الرجل اليها وقال :

ـ يا ام المؤمنين ، انه قد نهانى أن يعلم به محمد •

ولكن ذلك لم يثن ام المؤمنين عن عزمها فقالت :

ـ على بمحمد •

فجاء محمد . فقالت له :

ـ اذهب مع هذا الرجل حتى تجيئنى بابن اختك •

وناولت عائشة الرجل الذى بشرها بحياة ابن الزبير عشرة الاف درهم • ثم انطلق ومحمد بن ابى بكر حتى دخلا على ابن

الزبير . فلما رای عبد الله محمدا نظر اليه نظرة ارتياب وتساؤل ، فقال محمد :

ـ جئت والله بما كرهت ، وابت أم المؤمنين الا ذلك ٠

وخرج محمد وابن الزبير وهما يتشاتمان ، وذكر محمد عثمان فشتمه ، فشتم ابن الزبير محمدا ، واستمرا فى سبابهما حتى دخلا على عائشة ، وما ان وقعت عيناها على ابن الزبير حتى أحست نشوة ، وترقرقت دموع الفرح فى ماقيها ، ان ابنها الحبيب ماثل امامها ، فالحمد لله على نجاته ٠

ومر يومان ولم يدخل على البصرة ، وشاء انصار على أن يوزع عليهم أموال انصار طلحة والزبير فمشوا اليه وسالوه أن يقسم فيهم أموال المهزومين ، فابى عليهم ، فانصرفوا ولم ترض نفوس اصحاب ابن سبأ ، وراحوا يهمسون ، ويطعنون فى على فى الخفاء ، وبلغ على ان أنصاره يقولون :

ـ كيف يحل لنا دماؤهم ، ولا تحل لنا أموالهم ؟

فجمع القوم وقال لهم :

ـ ايكم يحب أن تصير أم المؤمنين فى سهمه ؟

فسكت القوم ، وطاطاوا رءوسهم فقد صفعهم ابن ابى طالب فلم تتحرك شفاههم ، ووئدت فى نفوسهم فكرة تقسيم أموال المهزومين فيهم ٠

ونادى على عبد الله بن عباس ، وبعثه الى عائشة يأمرها بالخروج الى المدينة ، فانطلق ابن عباس الى دار ابن خلف ولم يستأذن بل دخل الى عائشة بغير اذنها ، ولم يستاذن فى الجلوس اليها ، بل جذب وسادة فجلس عليها ، فنظرت عائشة اليه فى غضب وقالت :

ـ يا بن عباس . أخطأت السنة المأمور بها ؛ دخلت علينا بغير اذننا ، وجلست على رحلنا بغير أمرنا •

فقال ابن عباس في هدوء :

ـ لو كنت في البيت الذي خلفت فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما دخلنا الا بالاذن . وما جلسنا على رحلك الا باذنك • ان أمير المؤمنين يأمرك بسرعة العودة ، والتأهب للخروج الى المدينة •

ـ ابيت ما قلت ، وخالفت ما وصفت •

وأعرضت عنه ، فقام الى أمير المؤمنين وأخبره بامتناعها ، فرده اليها فدخل اليها وقال :

ـ ان أمير المؤمنين يعزم عليك ان ترجعي •

فوافقت وأجابت الى الخروج •

وفي صبيحة اليوم الثالث لانتهاء المعركة دخل على البصرة ، واتجه الى عائشة ، ومعه الحسن والحسين وباقي اولاده وأولاد اخوته ، وفتيان أهله من بني هاشم ، وانطلق علي بغلته فلما انتهى الى دار عبد الله بن خلف الفى صفية بنت الحارث تبكى على عبد الله وعثمان بن خلف ، فلما رأته رفعت رأسها اليه وقالت .

ـ يا علي يا قاتل الأحبة ، يا مفرق الجمع ، أيتم الله بنيك منك ، كما ايتمت ولد عبد الله منه •

فلم يرد عليها شيئا ، ولم يزل على حاله حتى دخل على عائشة ، فسلم عليها وقعد عندها وقال لها :

ـ جبهتنا صفية • اما اني لم أرها منذ كانت جارية حتى اليوم•

وتحدث علي وعائشة ، ورأت أم المؤمنين صفاء نفسه ، فشاءت أن تطمئن على ابن أختها ، فسألته أن يؤمن عبد الله فأمنه ، وأمن

الناس جميعا . وخرج على من عندها ، وقابلته صفية بمثل ما استقبلته به فقال رجل من أنصار على :

ـ والله لا تفلتنا هذه المرأة ·

فغضب على والتفت اليه وقال :

ـ صه . لا تهتكن سترا ، ولا تدخلن دارا ولا تهيجن امرأة بأذى وان شتمن أعراضكم ، وسفهن امراءكم وصلحاءكم . فانهن ضعاف ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن وانهن لمشركات . وان الرجل ليكافىء المرأة ويتناولها بالضرب فيعير بها عقبه من بعده . فلا يبلغنى عن أحد عرض لامرأة فانكل به شرار الناس ·

ومضى على فلحق به رجل فقال :

ـ يا أمير المؤمنين ، قام رجلان ممن لقيت على الباب فتناولا من هو امض لك شتيمة من صفية ·

ـ ويحلك لعلها عائشة ·

ـ نعم قام رجلان منهم على باب الدار فقال أحدهما : جزيت عنا أمنا عقوقا · وقال الآخر : يا امنا توبى فقد خطئت ·

فظهر الغضب في وجه على ، وأمر القعقاع ان ينطلق ويقبل بمن كان على الباب ·

فلما مثلوا بين يدى على ، وعلموا غضبه احالوا على رجلين فقال للقعقاع :

ـ اضرب اعناقهما ·

فظهر الفزع فى وجه الرجلين ، وسأله من حوله الرأفة فيهما فقال :

ـ لانهكنهما عقوبة ·

فضربهما مائة مائة ، واخرجهما من ثيابهما . وانصرف على بعد ان نال ممن نال من ام المؤمنين .

★ ★ ★

وتجهزت عائشة للخروج الى المدينة ، وأمدها على بكل شيء ينبغى لها من مركب أو زاد أو متاع ، وامر لها باثنى عشر الفا من المال ، وتاهب عبد الرحمن بن أبى بكر للخروج مع أخته ، واستعد ابن الزبير للعودة فى ركابها . ولما تم كل شيء ، وحانت ساعة الرحيل ، اقبل الناس لوداعها ، واقبل على والحسن والحسين ، وقبل أن تنطلق من البصرة ، التفتت الى الناس وقالت :

ـ يا بنى ، تعتب بعضنا على بعض استبطاء واستزادة ، فلا يعتدن احد منكم على أحد بشيء بلغه من ذلك ، انه والله ما كان بينى وبين على فى القديم الا ما يكون بين المرأة وأحمائها . وانه عندى على معتبتى من الاخيار .

فقال على :

ـ صدقت والله وبرّت ، ما كان بينى وبينها الا ذلك ، وانها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة .

وتحرك الركب ، وخرج على ليشيع عائشة اميالا ، وسرح بنيه معها يوما ، وعاد على ، واستانف الركب سيره ، وراح ابن الزبير يفكر فى دين أبيه ، وطفق عبد الرحمن بن ابى بكر يفكر فيما اعترى حبه واطفأ ناره .

الفصل السابع والعشرون

عاشق الخيال

واستمر الركب فى سيره الوئيد . وكان كل من فيه مشغولا بفكره . فكانت عائشة تفكر فى خروجها مع الزبير وطلحة للاصلاح بين الناس . وعودتها بعد ان عقر جملها * وقتل زوجا اختيها اسماء وام كلثوم . لقد قتل الزبير وكانت ترجو له خيرا . وقتل طلحة وقد ترك عائشة الصغيرة تنتظر اوبته . فياليتها ما خرجت . ويا ليتها ماتت قبل هذا اليوم بعشرين سنة . واستمرت عائشة تفكر طوال الطريق فما رحمها فكرها . ولا طابت نفسها . واهم دين الزبير ابنه عبد الله فراح يفكر فيما يفعل . لقد ترك الزبير احدى عشرة دارا بالمدينة ودارين بالبصرة . ودارا بالكوفة . ودارا بمصر . وارض الغابة التى اشتراها بسبعين ومائة الف . ولكنه ترك دينا ثقيلا . فقد حسب عبد الله ما عليه من الدين فوجده الفى الف ومائتى الف . فما يفعل عبد الله ؟ لقد قر رايه على ان يبيع ارض الغابة ليسد ما عليه * واستمر ابن الزبير يفكر فى الدين والدائنين . اما عبد الرحمن بن ابى بكر فقد جعل يفكر فى ليلى ابنة الجودى . فقد خبا حبه لها . بل لقد مات هذا الحب ولم يعد يحس له فى قلبه من حركة . لقد كان قلبه يقفز فى صدره اذا ما خطرت له ليلى على بال . وما اكثر ما كانت تخطر له على بال . وكان يحسب ان حبه لها سيدوم ما دام فى السماء نجم . فما باله اصبح يذكرها فلا يهزه

ذكراها . بل يحس ضيقا وانقباضا . كانت ليلى امنية نفسه . وكان يتمنى أن يجود ببعض عمره فى سبيل وصالها . فلما جاد الزمن بما لم يكن فى الحسبان ان يجود به . ونال عبد الرحمن ما تمنى . وارتبطت الأسباب بينه وبين من عاش على ذكراها سنوات كاد عبد الرحمن يجن فرحا . ولزم الدار ليعب من فم ليلى لذيذ الخمر الحلال . انه ليهيم بها . وانه ليرعاها ويحنو عليها . وانه ليجفف دموعها بشفتيه كلما سالت على خديها لذكرى الأهل والسلطان الذى تقوض . والعز الذى زال . وراحت سحابة الحزن التى كانت مخيمة على نفس ليلى تنقشع فقد بددتها حرارة حب عبد الرحمن . وابتدأ قلب ليلى يتفتح على قطرات الحب التى كانت تنزل عليه منعشة محيية . فنسيت الأهل ونسيت السلطان وأقبلت على حياة الحب والهيام . واستمر الحلم اللذيذ فأهمل عبد الرحمن ازواجه جميعا ولم يعد يرى الا ليلى . فقد كانت الحياة فى عينيها والسعادة فى شفتيها . ومرت الايام وابتدأ عاشق الخيال يصحو من حلمه اللذيذ . وابتدأ الملل يتسرب الى نفسه . ولاح فى خاطره خطرة ما كانت لتجسر أن تطرق باب فكره من قبل . خطر له أن ليلى ما هى الا امرأة كسائر نسائه . ان كان فيها رقة ففيهن رقة . وان كانت تمتاز بالحسن فكلهن حسناوات . فما باله يحبس حبه عليها . ولم يفزع عبد الرحمن لتسلل هذه الفكرة اليه أول ما تسللت . بل اطرق وراح يغذيها حتى نمت فى نفسه واستولت عليه . انه هجر نساءه وما كان له ان يهجرهن . وانه ليشتهيهن ويتمنى الوصال . وراح عاشق الخيال يهيم فى الخيال فلم يطق صبرا على البعد . فخرج من عند ليلى ليطوف على نسائه وليصل ما انقطع بينه وبينهن بعد ان عاد بليلى من الشام .

وتغير عبد الرحمن فلم يعد يتوقد الى ليلى ، فخشيت أن يكون حبه لها قد ولى . فاظهرت له ضروب الحنان لعلها تبقى على جذوة الحب في قلبه مشتعلة . ولكن هيهات فقد انطفأت الجذوة واصبح القلب رمادا .

فيا لليلى ! هجرها عبد الرحمن فلم يعد يزورها . فتحركت شجونها . وانزوت في بيت الأحزان . تبكي حبيبها الذي فقدته حيا وملك ابيها الذي ذاب ، واساها عبد الرحمن وانساها حبه زوال السلطان . فمن ذا الذي يواسيها في هجر عبد الرحمن ؟ وتواصت ليلى بالصبر وانتظرت لعل الطير الشارد يعود الى وكره . ولكن عبد الرحمن خرج وعائشة الى الحج ثم انطلق معها الى العراق للمطالبة بدم عثمان دون أن يودعها بكلمة أو يتزوده منها بقبلة وداع . نسيها عبد الرحمن ما في ذلك من شك . فما كان ينطلق الى الأسواق الا بعد أن يتزود منها بقبلات فما بالك بترك البلاد الى بلاد . ولم تشأ ليلى أن تتعلق باليأس ، وان تقطع حبل الأمل . بل راحت تمد فيه ، وجعلت تتعلل لعبد الرحمن وتجد له المعاذير . فلعله اضطر الى الخروج اضطرارا . ولم يكن هناك فسحة من الوقت ليمر عليها ويودعها قبل الرحيل . وتناست ليلى انه هجرها قبل أن يخرج للحج . وانتظرت أوبته من العراق وهي تتمنى أن يزورها فيبدد شكوكها ويعيد اليها طمأنينتها .

واستمر ركب عائشة في السير . ترفعه رافعة . وتخفضه خافضة . وكان الرجال الذين بعثهم أمير المؤمنين معها يخدمونها في الطريق . فكانت تحس ضيقا وحرجا كلما خدموها أو حطوها ! وبلغ الركب مكة في أوان الحج . فحج القوم ثم انطلقوا الى المدينة ، فلما بلغتها أم المؤمنين أسرع الناس لاستقبالها وقيل لها :

ـ كيف رأيت مسيرك ؟

ـ كنت بخير الله · لقد أعطى على بن أبى طالب فأكثر ، ولكنه بعث معى رجالا · واقترب منها الرجال الذين بعثهم على معهـا ، وخلعوا عمائمهم ، فتهدل الشعر الطويل . فقد كن نسوة من ذوات الدين من عبد قيس وهمدان وغيرهما ، البســن العمــائم وتقلدن السيوف ، فلما انكشف لعائشة أمرهن قالت :

ـ ما ازددت يا بن أبى طالب الا كرما · وددت انى لم اخرج ، انما قيل لى تخرجين فتصلحين بين الناس ·

وسار ابن الزبير وهو يفكر فى قضاء دين أبيه . فلقيه حكيم ابن حزام فقال له :

ـ يا بن أخى ، كم على اخى من الدين ؟

فكتمه عبد الله وقال :

ـ مائة الف ·

ـ والله لا أدرى اموالكم تتسع لهذه ·

ـ وان كانت الفى الف ومائتى الف ·

ـ ما أراكم تطيقون هذا . فان عجزتم عن شيء منه فاستعينوا بى ·

وانطلق ابن الزبير حتى اتى المسجد فقام وقال :

ـ من كان له على الزبير دين فليوافنا بالغابة ·

واتجه ابن الزبير الى الغابة ، واقبل الناس . واتاه عبد الله ابن جعفــر وكان له على الزبير اربعمــائة الف . فالتفت الى ابن الزبير وقال له

ـ ان شئتم تركتها لكم . وان شئتم فاخروها فيما تؤخرون ان اخرتم شيئا ·

فقال عبد الله فى عزم :

ـ لا .

ـ فاقطعوا لى قطعة .

ـ لك من ها هنا الى ها هنا .

واستمر ابن الزبير يبيع ارض الغابة حتى باع بالف الف وستمائة الف ولم يسدد دين ابيه .

اما عبد الرحمن فانه راح يطوف على نسائه فزارهم جميعا الا ليلى ، فحز ذلك فى نفسها ، لقد تبدل حب عبد الرحمن بغضا ، فحزنت حزنا ثقيلا ، وجعلت تبكى فما يرقا لها دمع ، فقد شربت كأس الذل ، وجرعت الهوان ، وصارت الدنيا موحشة مقبضة ، فقد اقفرت من الحبيب ، وتحطمت على صخرتها القاسية الاماني العذاب .

هجرها عبد الرحمن فما الذى يبقيها فى المدينة ، ان كل ما حولها لينكأ جرح قلبها ، ويذكرها بمن سكن القلب ثم مزقه ، ليتها تفر من الدار التى شهدت ايام الصفاء ، فان كل ركن من اركانها ليعيد اليها الذكريات التى تضنيها وتعذبها تعذيبا ، وخرجت ليلى الى دار عائشة تشكو اليها ما اصابها من هجر عبد الرحمن فسارت بخطا ثقيلة مطاطئة الراس ، تحس وطأة الذل ، فما كانت تحسب أن الزمن يجور عليها فيزلزل ملكهم ، ويحطم الفؤاد ، ودخلت على عائشة وقد ارتسم الأسى فى وجهها ، وراحت تقص عليها ما نالها من عبد الرحمن ، وقد غامت عيناها بالدموع ، وظهر التأثر على وجه عائشة ، فلما انتهت ليلى ، بعثت عائشة فى طلب عبد الرحمن ، فلما اقبل قالت له :

ـ يا عبد الرحمن . لقـد احببت ليلى فأفرطت . وابغضتهـا فأفرطت . فاما ان تنصفها واما أن تجهزها الى أهلها .

فاطرق عبد الرحمن ثم رفع رأسه وقال :

ـ اجهزها الى اهلها .

وخرجت ليلى من المدينة الى الشام تندب حظها العاثر ، وتبكى حبها الفاشل .

الفصل الثامن والعشرون

والى مصر

سرب محمد بن ابى حذيفة المصريين الى عثمان بن عفان ، وخرج معهم محمد بن ابى بكر . وبقى ابن ابى حذيفه بمصر . فلما حوصر عثمان وثب ابن ابى حذيفة على عبد الله بن ابى سرح فطرده منها وصلى بالناس ، وبويع لعلى واظهر معاوية الخلافة ، وبايعه على ذلك عمرو بن العاص . فسار معاوية وعمرو الى محمد بن ابى حذيفة ، وعالجا دخول مصر فلم يقدرا على ذلك ، فلم يزالا يخدعان ابن ابى حذيفة حتى خرج الى عريش مصر فى الف رجل ، فتحصن بها وجاءه عمرو فنصب المنجنيق عليه ، فأخذ ابن أبى حذيفة فى ثلاثين من اصحابه وقتل ٠

ودعا على قيس بن سعد الانصارى فقال له :

ـ سر الى مصر فقد وليتكها ، واخرج الى رحلك واجمع اليه ثقاتك ، ومن احببت أن يصحبك حتى تأتيها ومعك جند ، فان ذلك أرهب لعدوك وأعز لوليك ٠

ـ رحمك الله يا أمير المؤمنين ، فقد فهمت ما قلت ، أما قولك اخرج اليها بجند فوالله لئن أدخلها الا بجند آتيهـا به من المدينة لا أدخلها ابدا ، فأنا ادع ذلك الجند لك ، فان احتجت اليهم كانوا منك قريبـا ، وان أردت ان تبعثهم الى وجه من وجوهك كانوا عدة لك ، وانا أصير اليها بنفسى واهل بيتى ٠

وانطلق قيس بن سعد فى سبعة نفر من أصحابه حتى دخل مصر فقام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه و قال :

ـ الحمد لله الذى جاء بالحق ، وأمات الباطل ، وكبت الظالمين . أيها الناس انا قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد نبينا صلى الله عليه وسلم . فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله عز وجل . وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فان نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم .

فقام الناس فبايعوا . واستقامت لقيس بن سعد مصر . وبعث عليها عماله الا قرية خربتا فقد أعظم أناس فيها قتل عثمان . وامتنعوا عن البيعة ، وارسلوا الى قيس :

ـ انا لا نقاتلك . فابعث عمالك . فالأرض أرضك ولكن اقرنا على حالنا حتى ننظر الى ما يصير أمر الناس .

واستقر الامر فى مصر لقيس بن سعد ولكن وثب مسلمة بن مجلد الانصارى فنعى عثمان . ودعا الى الطلب بدمه . فرأى سعد أن يصانعه فأرسل اليه :

ـ ويحك . على تثب . فوالله ما احب أن يكون لى ملك الشام الى مصر وانى قتلتك .

فبعث اليه مسلمة :

ـ انى كاف عنك ما دمت أنت والى مصر .

وهدأت مصر بحزم قيس ورأيه . فأوجس معاوية منه خيفة . انه ليخشى أن يقبل اليه على فى أهل العراق . ويقبل اليه قيس بن سعد فى أهل مصر فيقع بينهما وتكون القاضية . ففكر معاوية وهداه فكره أن يستميل قيسا اليه . فبعث اليه يطلب منه ان يبايعه

ويتابعه وله سلطان العراقين ولمن احب من اهل بيته سلطان الحجاز ما دام لمعاوية سلطان .

فرفض قيس هذا العرض ، فساء ذلك معاوية واغمه ، فانه يعلم أن قيس بن سعد من ذوي الرأي والبأس ، وانه شوكة في جنبه ولن يهدأ معاوية حتى يخضد هذه الشوكة ، وينتزعها من جنبه انتزاعا . وفكر معاوية واعمل الفكر ، فرأى ان خير وسيلة لنزع قيس ان يوقع بينه وبين علي ، فقام معاوية على المنبر وقال

ـ لا تسبوا قيس بن سعد ، ولا تدعوا الى غزوه ، فانه لنا شيعة يأتينا كيس نصيحته سرا . الا ترون ما يفعل باخوانكم الذين عنده من اهل خربتا ، يجري عليهم اعطياتهم وارزاقهم ، ويؤمن سربهم ، ويحسن الى كل راكب قدم عليه منكم .

فسرحت عيون علي بن ابي طالب الى محمد بن ابي بكر ومحمد ابن جعفر بذلك فدخلا على أمير المؤمنين واخبراه خبر قيس ، فتعجب له ولم يصدق ، فانه ليعلم أن قيسا من انصاره ودعا بنيه وقال :

ـ ما رأيكم ؟

ـ يا امير المؤمنين ، دع ما يريبك الى ما لا يريبك ، اعزل قيسا عن مصر .

ـ والله ما اصدق بهذا على قيس .

ـ مره بقتال اهل خربتا .

فكتب علي الى قيس كتابا يأمره بقتال اهل خربتا ، فابى قيس ابن سعد ان يقاتلهم ، وكتب الى علي « انهم وجوه اهل مصر وأشرافهم واهل الحفاظ منهم ، وقد رضوا مني ان أؤمن سربهم وأجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ، وقد علمت ان هواهم مع معاوية

فلست مكايدهم بأمر اهون على وعليك من الذى افعل بهم ، ولو انى غزوتهم كانوا لى قرنا ، وهم اسود العرب ، ومنهم بسر بن ارطاط ومسلمة بن مخلد ومعاوية بن خديج ، فذرنى فانا اعلم بما اداري منهم » .

فقال عبد الله بن جعفر :

- يا امير المؤمنين ما اخوفنى ان يكون هذا ممالأة لهم منه ، فمره يا امير المؤمنين بقتالهم .

فكتب على الى قيس : « سر الى القوم الذين ذكرت ، فان دخلوا فيما دخل فيه المسلمون والا فناجزهم ان شاء الله » فلما اتى قيس ابن سعد الكتاب كتب الى امير المؤمنين : « يا امير المؤمنين ، فقد عجبت لامرك . اتأمرني بقتال قوم كافين عنك ، مفرغيك لقتال عدوك ، وانك متى حاربتهم ساعدوا عليك عدوك . فاطعنى يا امير المؤمنين ، واكفف عنهم ، فان الرأى تركهم والسلام » .

وبلغ الكتاب على فقال ابن جعفر :

- يا امير المؤمنين ، ابعث محمد بن ابى بكر على مصر يكفك امرها ، واعزل قيسا ، والله لقد بلغنى ان قيسا يقول : والله ان سلطانا لا يتم الا بقتل مسلمة بن مخلد لسلطان سوء ، والله ما احب ان لى ملك الشام الى مصر وانى قتلت ابن المخلد .

فوافق على على بعث محمد بن ابى بكر على مصر ، فتجهز محمد وحمل اهل بيته ، وانطلق الى مصر يحمل كتاب امير المؤمنين ، فلما دخلها قدم على قيس وقدم اليه كتاب امير المؤمنين ، فتغير وجه قيس لما علم بعزله وقال :

- ما بال امير المؤمنين ، ما غيره ؟ أدخل احد بينى وبينه ؟

- لا وهذا السلطان سلطانك .

ـ لا ، والله لا اقيم معك ساعة واحدة ٠

وخرج قيس بن سعد من مصر لا لينضم الى معاوية بل لينطلق الى على الذى عزله ليشهد معه صفين ، وينتظر لعل الأيام تثبت صدق فراسته وانه كان لعلى ناصحا يوم نصحه ان يكفف عن قتال أهل خربتا . وخرج محمد بن أبى بكر الى المسجد وقام خطيبا فحمد الله واثنى عليه ثم قال :

ـ الحمد لله الذى هدانا واياكم لما اختلف فيه من الحق وبصرنا واياكم كثيرا مما عمى عنه الجاهلون ، الا ان أمير المؤمنين ولانى اموركم ، وعهد الى ما قد سمعتم ، واوصانى بكثير منه مشافهة ، ولن آلوكم خيرا ما استطعت وما توفيقى الا بالله ، وعليه توكلت واليه أنيب ، فاحمدوا الله عز وجل على ما كان من ذلك فانه هو الهادى ، وان رأيتم عاملا لى عمل غير الحق زائغا فارفعوه الى ، وعاتبونى فيه ، فانى بذلك أسعد ، وانتم بذلك جديرون ، وفقنا الله واياكم لصالح الأعمال برحمته ٠

ونزل محمد وذهب الى مقر عمله ، وكتب اول ما كتب كتابا الى معاوية بن أبى سفيان :

« من محمد بن أبى أبكر الى الغاوى معاوية بن صخر .

اما بعد . فان الله بعظمته وسلطانه خلق خلقه بلا عبث منه ولا ضعف فى قوته و لاحاجة به الى خلقهم ، ولكنه خلقهم عبيدا وجعل منهم غويا ورشيدا ، وشقيا وسعيدا ، ثم اختار على علم منه واصطفى وانتخب منهم محمدا صلى الله عليه وسلم . فانتخبه لعلمه ، واصطفاه لرسالته ، وائتمنه على وحيه . وبعثه رسولا مبشرا ونذيرا ، فكان اول من أجاب وأناب وآمن وصدقه ، وأسلم وسلم أخوه وابن عمه على بن أبى طالب ؛ صدقه بالغيب المكتوم

وآثره على كل حميم ، ووقاه بنفسه كل هول ، وحارب حربه وسالم سلمه ، فلم يبرح مبتذلا لنفسه فى ساعات الليل والنهار ، والخوف والجوع والخضوع ، لا نظير له فيمن اتبعه ، ولا مقارب له فى فعله ، وقد رأيتك تسامبه ، وأنت أنت ، وهو هو أصدق الناس نية ، وأفضل الناس ذرية ، وخير الناس زوجة ، وأفضل الناس ابن عم ، أخوه الشارى بنفسه يوم موته ، وعمه سيد الشهداء يوم أحد ، وأبوه الذاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن حوزته ، وأنت اللعين ابن اللعين ، لم تزل أنت وأبوك تبغيان لرسول الله صلى الله عليه وسلم الغوائل ، وتجهدان فى اطفاء نور الله تجمعان على ذلك الجموع وتبذلان فيه المال ، وتؤلبان عليه القبائل : وعلى ذلك مات أبوك ، وعليه خلفته ، والشهيد عليك من تدنى ويلجأ اليك من بقية الاحزاب ، ورؤساء النفاق ، والشاهد لعلى مع فضله المبين القديم أنصاره الذين معه ، الذين ذكرهم الله بفضلهم وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار ، وهم معه كتائب وعصائب ، يرون الحق فى اتباعه والشقاء فى خلافه ، فكيف ـ يا لك الويل ـ تعدل نفسك بعلى ، وهو وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ووصيه وأبو ولده ، أول الناس له اتباعا ، وأقربهم به عهدا ، يخبره بسره ، ويطلعه على أمره ، وأنت عدوه وابن عدوه ، فتمتع فى دنياك ما استطعت بباطلك ، وليمددك ابن العاص فى غوايتك فكأن أجلك قد انقضى ، وكيدك قد وهى ، ثم تبين لك لمن تكون العاقبة العليا ، واعلم أنك انما تكايد ربك الذى أمنك كيده ، ويئست من روحه ، فهو لك بالمرصاد ، وأنت منه فى غرور والسلام على من اتبع الهدى » .

فكتب اليه معاوية :

« من معاوية بن صخر الى الزارى على ابيه محمد بن ابى بكر »

اما بعد فقد اتانى كتابك تذكر فيه ما الله فى عظمتـه وقدرته وسلطانه . وما اصطفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، مع كلام كثير لك فيه تضعيف ولابيك فيه تعنيف . ذكرت فيه فضل ابن ابى طالب . وقديم سوابقه . وقرابته الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومواساته اياه فى كل هول وخوف . فكان احتجاجك على وعيبك لى بفضل غيرك لا بفضلك . فأحمـد رباً صرف هـذا الفضل عنك وجعله بغيرك . فقد كنا وابوك فينا نعرف فضـل ابن ابىطالب وحقه لازما لنا مبرورا علينا . فلما اختار الله لنبيه عليه الصلاة والسلام ما عنده واتم له ما وعده . واظهـر دعوته فابلج حجته . وقبضه الله اليه صلوات الله عليه . كان ابوك وفاروقه اول من ابتزه حقه . وخالفه على امره . على ذلك اتفقا واتسـقا . ثم انهما دعواه الى بيعتهما فابطا عنهما وتلكا عليهمـا . فهمـا به الهموم . وارادا به العظيم . ثم انه بايع لهما وسلم لهما . واقاما لا يشركانه فى امرهما . ولا يطلعانه على سرهما . حتى قبضهما الله . ثم قام ثالثهما عثمان فهدى بهديهما . وسار بسيرهما . فعبته انت وصاحبك حتى طمع فيه الاقاصى من اهل المعاصى . فطلبنا له الغوائل واظهرتما عدوانكما . حتى بلغتما فيه مناكما . فخذ حذرك يا بن ابى بكر . وقس شبرك بفترك يقصر عن ان توازى او تسـاوى من يزن الجبال بحلمه . لا يلين عن قسر قناته . ولا يدرك ذو مقال اناته . مهد مهاده . وبنى لملكه وشاده . فان يك ما نحن فيه صوابا . فابوك استبد به فنحن شركاؤه . ولولا ما فعل ابوك من قبل ما خالفنا ابن ابى طالب . ولسلمنا اليه . ولكن رأينا اباك فعـل ذلك به من

قبلنا . فاخذنا بمثله . فعب أباك بما بدا لك أو دع ذلك . والسلام على من اناب •

★ ★ ★

ومر على محمد بن أبى بكر شهر وهو فى مصر يفكر فى قتال هؤلاء المعتزلين . وكان كلما هم بقتالهم تذكر ما دار بينه وبين قيس ابن سعد يوم خلا به وناجاه وقال : « انك جئت من عند امرىء لا راى له . وليس عزلكم اياى بمانعى ان انصح لكم . وانا من امركم هذا على بصيرة » . ونصحه قيس الا يقاتل اهل خربتا ولكن محمدا اغتشه وقر رأيه أخيرا على قتالهم • فبعث اليهم : « يا هؤلاء اما ان تدخلوا فى طاعتنا . واما ان تخرجوا من بلادنا » فبعثوا اليه : « انا لا نفعل . دعنا حتى ننظر الى ما تصير اليه امورنا . ولا تعجل بحربنا » فابى عليهم ذلك . فاخذوا حذرهم . وجعلوا يتتبعون اخبار معاوية فى الشام . وان عليا قد رجع عن معاوية وصار أمرهما الى الحكومة . شد ذلك من أزرهم فاجترءوا على محمـــد بن أبى بكر واظهروا له العداوة • فلما اصبحت عداوتهم سافرة . ومنارءتهم ظاهرة . بعث اليهم جيشا . فدار القتال بين أهل خربتـــا وجيش محمد . وانهزم الجيش وقتل قائده . فبعث محمد جيشا آخر لم يك احسن حظا من سابقه . فقد لحقته الهزيمة . وسقط القائد قتيلا . فضاعت هيبة محمد . وخرج معاوية بن خديج الكندى احد زعماء خربتا يدعو الى الطلب بدم عثمان . فاجاب ناس آخرون . فبالحمد فقد فسدت مصر عليه وابتدأت فى الوثوب عقبه •

وبلغ عليا وثوب اهل مصر على محمد . فقال : « ما لمصر الا احد الرجلين : صاحبنا الذى عزلناه عنها . او مالك بن الحارث (الأشـــتر) » وعزم على تســـيير الاشتر الى مصر فبعث اليـــه .

« اما بعد ، فانك ممن استظهرته على اقامة الدين ، واقمع به نخوة الأثيم ، واشد به الثغر المخوف ، وكنت قد وليت محمد بن أبى بكر مصر ، فخرجت عليه بها الخوارج ، وهو غلام حدث ليس بذى تجربة للحرب ، ولا مجرب للأشياء فاقدم على لننظر فى ذلك فيما ينبغى ، واستخلف على عملك أهل الثقة والنصيحة من أصحابك والسلام » .

فاقبل الاشتر ، وسرحه على الى مصر ، وبلغ ذلك معاوية فساءه ، فان الأشتر قوى الشكيمة ، وان معاوية ليطمع فى مصر ، فلو انها صارت الى الاشتر لامتنعت عليه ، ففكر فى أن يمنع وصوله الى مصر ، فتفتق ذهن الداهية عن حيلة ليس لها من رد ، فوضع رجلا فى طريق الأشتر فلما مر به استقبله الرجل فقال :

« هذا منزل ، وهذا طعام وعلف ، وانا رجل من أهل الخراج » فنزل الأشتر وأتاه الرجل بعلف وطعام ، حتى اذا طعم أتاه بشربة من عسل قد جعل فيها سما فسقاه اياه ، فلما شربها نال معاوية مبتغاه .

وبلغ محمد بن ابى بكر أن عليا بعث الأشتر فشق ذلك عليه ، ووجد موجدة وبلغ عليا موت الأشتر وموجدة محمد ، فبعث اليه

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله على أمير المؤمنين الى محمد بن ابى بكر :

سلام عليك . اما بعد فقد بلغنى موجدتك من تسريحى الاشتر الى عملك ، وانى لم افعل ذلك استبطاء لك فى الجهاد ، ولا ازديادا منى فى الجد ، ولو نزعت ما تحت يدك من سلطانك لوليتك ما هو ايسر عليك فى المؤنة ، واعجب اليك ولاية منه ، ان الرجل الذى كنت وليته مصر كان لنا نصيحا ، وعلى عدونا شديدا ، وقد استكمل

أيامه . ولاقى حمامه ، ونحن عنه راضون ، فرضى الله عنه وضاعف له الثواب ، واحسن له المآب ، اصبر لعدوك ، وشمر للحرب ، وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة واكثر من ذكر الله ، والاستعانة به ، والخوف منه يكفيك ما اهمك ويعينك على ما ولاك . اعاننا الله واياك على ما لا ينال الا برحمته والسلام عليك » .

وبلغ كتاب على محمدا فهدأت نفسه وكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله على امير المؤمنين من محمد بن ابى بكر : سلام عليك ، فانى احمد الله اليك الذى لا اله غيره ، اما بعد : فانى قد انتهى الى كتاب امير المؤمنين ففهمته وعرفت ما فيه ، وليس احد من الناس بأرضى منى برأى امير المؤمنين ، ولا اجهد على عدوه ولا اراف بوليه منى ، وقد خرجت فعسكرت وآمنت الناس الا من نصب لنا حربا واظهر لنا خلافا ، وانا متبع امر امير المؤمنين وحافظه ، ملتجىء اليه وقائم به ، والله المستعان على كل حال والسلام » .

وبايع اهل الشام لمعاوية ، فطمع فى مصر وبعث الى الثوار ليشد ازرهم فارسل الى معاوية بن خديج الكندى ومسلمة بن مخلد الأنصارى : « بسم الله الرحمن الرحيم ، اما بعد ، فان الله قد ابتعثكما لأمر عظيم به أجركما ، ورفع به ذكركما وزينكما به فى المسلمين . طلبكما بدم الخليفة المظلوم ، وغضبكما لله اذ ترك حكم الكتاب ، وجاهدتما اهل البغى والعدوان ، فأبشرا برضوان ، وعاجل نصر اولياء الله » .

فبعثا الى معاوية يطلبان منه ان يمدهما بجيش ، فأوفد عمرو ابن العاص فى ستة آلاف رجل ، وانطلق الثوار للانضمام الى جيش ابن العاص .

ونزل عمرو اداني ارض مصر . وكان عبد الرحمن بن ابي بكر في جيشه . فقد انضم الى معاوية بعد أن أعاد ليلى الى أهلها ، وحارب عليا معه ، وخرج الى مصر ليقابل جيش أخيه . فيا لآل ابي بكر . انقسما معسكرين . وقابل الاخ أخاه .

وأرسل عمرو الى محمد بن ابي بكر كتابا . وأعطى الرسول كتاب معاوية اليه . فلما تسلم الرسالتين . فض الأولى فاذا هي رسالة عمرو فقرأ : « اما بعد . فتنح عني بدمك يا بن ابي بكر ، فاني لا أحب ان يصيبك مني ظفر . ان الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ، ورفض امرك ، وندموا على اتباعك ، فهم مسلموك ، لقد التقت حلقتا البطان . فاخرج منها فاني لك من الناصحين والسلام » . ففض كتاب معاوية وقرأ . « اما بعد فاني غب البغي والظلم عظيم الوبال . وان سفك الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النقمة في الدنيا . ومن التبعة الموبقة في الآخرة ، وانا لا نعلم أحدا كان أعظم على عثمان بغيا ولا اسوأ له عيبا ، ولا اشد عليه خلافا منك . سعيت عليه في الساعين . وسفكت دمه في السافكين . ثم انت تظن اني عنك نائم . او ناس لك حتى تاتي فتأمر على بلاد انت فيها جاري . وجل أهلها أنصاري يرون رأيي . ويرقبون قولي ، ويستصرخوني عليك . وقد بعثت اليك قوما حناقا عليك . يستسقون دمك . ويتقربون الى الله بجهادك . وقد اعطوا الله عهدا ان يمثلن بك . ولو لم يكن منهم اليك ما عدا قتلك ما حذرتك . ولا أنذرتك ولأحببت ان يقتلوك بظلمك وقطيعتك وعدوك على عثمان » .

فطوى محمد كتابيهما وبعث بهما الى علي وكتب معهما :

« اما بعد فان ابن العاص قد نزل اداني أرض مصر واجتمع اليه اهل البلد جلهم ممن كان يرى رأيهم ، وقد جاء في جيش لجلب

خراب . وقد رأيت ممن قبلي بعض الفشل . فان كان لك فى أرض مصر حاجة . فأمدنى بالرجال والأموال والسلام عليك » .

وكتب الى معاوية : « أما بعد فقد أتانى كتابك ، تذكرنى من أمر عثمان أمرا لا أعتذر اليك منه . فأمرنى بالتنحى عنك كأنك لى ناصح . وتخوفنى المثلة كأنك شفيق . وأنا أرجو أن تكون لى الدائرة عليكم فأجتاحكم فى الوقعة . وان تؤتوا النصر . ويكن لكم الامر فى الدنيا . فكم لعمرى من ظالم قد نصرتم . وكم من مؤمن قد قتلتم ومثلتم به . والى الله مصيركم ومصيرهم . والى الله مرد الامور . وهو أرحم الراحمين . والله المستعان على ما تصفون والسلام » .

وكتب الى عمرو بن العاص : « اما بعد فقد فهمت ما ذكرت فى كتابك يا بن العاص . زعمت أنك تكره أن يصيبنى منك ظفر . وأشهد أنك من المبطلين . وتزعم انك لى نصيح . وأقسم أنك عندى ظنين . وتزعم ان اهل البلد قد رفضوا رأيى وامرى . وندموا على اتباعي . فاولئك لك وللشيطان الرجيم أولياء . فحسبنا الله رب العالمين » .

الفصل التاسع والعشرون

فى جوف حمار

دخل رســـول محمـــــد بن ابى بكر الكوفة ، وانطلق الى أمير المؤمنين . فلما فرغ على من قراءة الكتب الثلاثة ، خرج الى الجامع وأمر فنودى الصلاة جامعة ، فتوافد الناس ، وقام على وقال :

ـ أما بعد : فان هذا صريخ محمد بن أبى بكر واخوانكم من أهل مصر ، قد سار اليهم ابن النابغة عدو الله ، وولى من عادى الله . فلا يكونن اهل الضـــلال الى باطلهم والركون الى ســـبيل الطاغوت اشد اجتمـــاعا منكم على حقكم هـــذا . فانهم قد بدأوكم واخوانكم بالغزو . فاعجلوا اليهم بالمواساة والنصر . عباد الله ان مصر أعظم من الشام اكثر خيرا وخير اهـــلا . فلا تغلبوا على مصر : فان بقاء مصر فى ايديكم عز لكم ، وكبت لعدوكم . اخرجوا الى الجرعة بين الحيرة والكوفة ، فوافونى بها هناك غدا ان شاء الله .

وانصرف على ، وانقضى الليل وهو يفكر فى انتـــداب الناس الى الخروج الى مصر لشد أزر ابن الصديق ، ولما لاح نور الصباح خرج يمشى الى الجرعة فنزلها بكرة ، وأقام بها وانتظر الناس الذين سيوافونه هناك ، ومرت ساعات ولم يوافه منهم رجل واحد ، فحز ذلك فى نفسه ، وضاق صدره ، ولكنه تواصى بالصبر وانتظر فاخذت الساعات فى المرور ، ولم يقدم أحد ، فحزن واكتأب ، فما بال القوم

لا يجيبون دعوته ؟ ! وانتصف النهار واعتلت الشمس كبد السماء ، فقام عائدا والأسى يهصر قلبه · والحنق يملأ صدره ، وساءه معاوية يدعو قومه فيتبعونه ، وهو يدعو من حوله فيقومون عنه ويعصونه ، انه ليتمنى فراق القوم الذين ابتلاه الله بهم ، وراح يفكر فى صريخ محمد بن أبى بكر ، فازداد حزنا على حزن ، ودخل الدار مطأطىء الرأس ، كسير الفؤاد ، يحس للحزن وخزا ، وانقضى النهار ولم تهدأ نفسه · بل كان كلما تذكر ما اصابه من أنصاره زاد غما ، فما كان من العشى بعث الى أشراف الناس ، فدخلوا عليـه وهو حزين كئيب ، فالتفت اليهم وقال لهم :

ـ الحمد لله على ما قضى من أمرى ، وقدر من فعلى ، وابتلانى بكم أيتها الفرقة ممن لا يطيع اذا أمرته ، ولا يجيب اذا دعـوت ، لا أبا لغيركم ما تنتظـرون بصبركم والجهـاد على حقكم ، الموت والذل لكم فى هذه الدنيا على غير الحق ، فوالله لئن جاء المـوت وليأتين ليفرقن بينى وبينكم ، وانا لصحبتكم قال ، ولكم غير ضنين ، لله انتم لا دين يجمعكم ، ولا حمية تحميكم ، واذا سمعتم بعدوكم يرد بلادكم ، ويشن الغارة عليكم ، أوليس عجبـا ان معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة ، ويجيبونه فى السنة المرتين والثلاث الى أى وجه شاء ، وأنا أدعوكم وأنتم أولو النهى وبقية الناس على المعـونة ، وطائفة منكم على العطـــاء ، فتقومون عنى ، وتعصون وتختلفون على ·

وصمت على وقد بلغ التأثر به منتهاه ، ورأى مالك بن كعب الهمدانى تأثر الامام العميق ، وحزنه الشديد فقام اليه وقال :

ـ يا أمير المؤمنين اندب الناس ، فانه لا عطر بعد عروس ، لمثل هذا اليوم كنت أدخر نفسى ، والأجر لا يأتى الا بالكره ، اتقوا الله ،

واجيبوا امامكم ، وانصروا دعوته ، وقاتلوا عدوه ، انا أسير اليها يا أمير المؤمنين •

وراح منادي على ينادي في الناس . « الا انتدبوا الى مصر مع مالك بن كعب » فلم يسارع الناس الى الانتداب ، وانقضت أيام وتاهب الخارجون للخروج وخرج مالك وخرج على معه فنظر فاذا جميع من خرج نحو الفى رجل . فظهر الأسى فى وجهه ، وتيقن ان مصر قد خرجت من يده ، فقال لمالك :

ــ سر ، فوالله ما اخالك تدرك القوم حتى ينقضى أمرهم •

★ ★ ★

نزل عمرو أدانى مصر ، فقام محمد بن أبى بكر فى الناس يخطبهم على القتال فقال :

ــ معاشر المسلمين والمؤمنين ، فان القوم الذين كانوا ينتهكون الحرمة ، وينعتون الضلال ، ويشبون نار الفتنة ، ويتسلطون بالجبرية ، قد نصبوا لكم العداوة ، وساروا اليكم بالجنود ، عباد الله فمن اراد الجنة والمغفرة فليخرج الى هؤلاء القوم ، فليجاهدوهم فى الله ، انتدبوا عباد الله مع كنانة بن بشر •

فانتدبوا مع كنانة نحو الفى رجل ، وخرجوا لقتال عمرو وجيش الشام ، وخرج ابن أبى بكر فى الفى رجل ، وانطلق كنانة على مقدمة محمد حتى التقى بجيش عمرو • فسرح عمرو الكتائب كتيبة بعد كتيبة ، فراح كنانة يشد على كل كتيبة تصطدم به فيضربها حتى يقربها بعمرو ، ورأى عمرو ما يفعل كنانة بجيشه ، فبعث الى حليفه معاوية بن خديج ، فجاء معاوية فى جيش عظيم ، فأحاط بكنانة وأصحابه ، واجتمع أهل الشام عليهم من كل جانب ، فلما

راى كنانة ما حل بجيشه ، نزل عن فرسه وقد عزم على أن يبقى فى الميدان منتصبا حتى يحكم الله بينه وبين اعدائه ، وشرع سيفه ، وراح يقرأ ، وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منهـــا وستجزى الشاكرين » .

وكشر بشر عن أنيابه ، وجعل يلعب بسيفه ورمحه ، واســتمر يقاتل ويذب عن نفسه حتى أصــابه كلال ، ان القــوم يحيطون به ويطلبونه ، وان الموت منه قريب ، فلم يجزع واستمر ثابتا فى مكانه يمشى مشى الفحول ، وخلصت اليه الجراح ، وانبثق الدم انبثــاقا فوهنت يده ، وراى أعداءه أشــباحا تتراقص امام عينيه ، ودارت الدنيا به ولكنه تجلد ، وحاول ان يثبت على قدميــه ، ولكن طعنة خلصت الى قلبه فســقط مجدلا ، فلما راى اهل مصر ما اصــاب قائدهم تفاروا ، وانهزموا مذعورين ، فاقتفى عمرو اثرهم ، وراح يطلب محمد بن أبى بكر ، ولكنه لم يجد لجيش محمد أثرا فقد تفرق عنه صحابه لما بلغهم قتل كنانة ، فاستمر عمرو فى ســيره حتى نزل فسطاط مصر .

تفرق عن محمد اصحابه حتى بقى وما معه واحد منهم ، فخرج يمشى فى الطريق يضرب على غير هدى ، واستمر فى سيره حتى بلغ منه الجهد ، واصابه الاعياء فشاء ان يستريح ، فهم أن يجلس ، ولكنه تذكر القوم يطلبونه ، فتحامل واستأنف سيره ، وجعل يتلفت خلفه ، حتى وهنت قواه ، ولمح خربــة فى ناحية الطــريق ، فيمم صوبها وجعل يجر رجليه جرا حتى دخلها ، واوى اليها ، وراح يلتقط انفاسه ، وكان كلما أحس حركة تلفت مذعورا ، وشعر بظمأ شديد ، وبجفاف قاتل فى حلقه ، ففكر فى ان يطلب ماء ولكنه خشى

ان يعثر عليه اعوان عمـرو . فبقى فى مكانه . ودخل الخربة رجل فقلق محمد واضطرب ، وحاول أن يقوم ليختفى ولكن جسمه كان قد حن الى الراحة ، فثبت فى مكانه وثبتت عيناه على الرجل ، حتى اذا ما خرج عاد الى نفس محمد طمأنينتها ، وبقى فى الخربة وحده فريسة العطش الشديد .

دخل عمرو الفسطاط ، وجعل معاوية بن خديج ينقب عن محمد ابن ابى بكر ثم خرج فى طلبـه ، وبلغ عبد الرحمـن بن ابى بكر خروج معاوية فى طلب أخيه فأوجس خيفـة ، فان ابن خديج لن يرجع عن قتله اذا ما وقع فى يده ، فانطلق عبد الرحمن الى عمرو بنفس وجلة مضطربة ، انه ليخشى ان يبطش ابن خديج بمحمـد ، ودخل على عمرو وقد نسى كل شىء الا ان محمدا أخوه ، وأن الخطر يحف به ، وان الموت يدنو منه كلما دنا ابن خديج من مكمنه فاقترب منه عمرو وقال :

ـ يا عمرو أتقتل اخى صبرا ؟ .

فأطرق عمرو ولم يحر جوابا ، فقال عبد الرحمن فى غضب

ـ ابعث الى معاوية بن خديج فانهه .

فلم يحرك عمرو ساكنا ، فثار عبد الرحمن ، فنـادى عمـرو رجلا وقال له :

ـ اخرج الى معـاوية بن خديج ومره أن يأتى بمحمـد بن أبى بكر .

فخرج الرسول فى اثر ابن خديج ، وراح يطوى الارض حتى بلغه وهو يسأل النـاس فى قارعة الطـريق : « هل مر بكم احد تنكرونه ؟ » فأبلغه أمر عمرو .

واستمر ابن خديج وأصحابه يضربون فى الطريق حتى اقتربوا

من الخربة فالقوا رجلا في الطريق ، فسأله ابن خديج :
ـ هل مر بك احد تنكره ؟
ـ لا والله ، الا انى دخلت تلك الخربة فاذا انا برجل فيها جالس .
فتهللت أسارير ابن خديج وصاح :
ـ هو هو ورب الكعبة .
فانطلق ابن خديج واصحابه يركضون حتى دخلوا عليه . فلم يقاوم بل استسلم لهم ، لأن العطش كان يكاد يقضي عليه . وعاد معهم الى عمرو ، ورأى عبد الرحمن اخاه اسيرا فى ايدى أعدائه ، فخفق قلبه وأحس غصة فى حلقه . واقترب من ابن خديج وطلب منه ان يخلى عنه ، فصاح معاوية :
ـ أكذاك قتلتم كنانة بن بشر واخلى انا عن محمد بن ابى بكر ، هيهات . أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر .
والتفت محمد الى عبد الرحمن وقال :
ـ اسقونى من الماء .
فهم عبد الرحمن باحضار الماء ولكن ابن خديج قال :
ـ لا سقاه الله ان سقاك قطرة ماء . انكم منعتم عثمان ان يشرب الماء حتى قتلتموه صائما محرما فتلقاه الله بالرحيق المختوم ، والله لأقتلنك يا بن ابى بكر فيسقيك الله الحميم الغساق .
فقال له محمد
ـ يا بن اليهودية النساجة ، ليس ذلك اليك والى من ذكرت ، وانما ذلك الى الله عز وجل يسقى أولياءه ، ويظمىء اعداءه انت وضرباؤك ومن تولاه . أما والله لو كان سيفى فى يدى ما بلغتم منى هذا .

فثارت ثائرة عبد الرحمن ، فان سيفه فى يده ، وانه ليتمنى ان يقتل هؤلاء جميعا ليخلص أخاه ولكن ما يفعل فرد في هذه الجموع الكثيرة الثائرة التى تتعطش الى دم أخيه ، فبقى فى مكانه والحزن يحز فى نفسه حزا ، فان أخاه يقتل امام عينيه وهو لا يحرك ساكنا .
والتفت ابن خديج الي محمد وقال في شماتة :

ـ اتدرى ما أصنع بك ؟ ادخلك فى جوف حمار ثم احرقه عليك بالنار .

فقال محمد في ثبات :

ـ ان فعلتم بى ذلك فطالما فعل ذلك باولياء الله . وانى لأرجو هذه النار التى تحرقنى بها ان يجعلها الله بردا وسلاما كما جعلها على خليله ابراهيم ، وان يجعلها عليك وعلى اوليائك كما جعلها على نمرود واوليائه ، ان الله يحرقك ومن ذكرته قبل ، وامامك وهذا (واشار الى عمرو) بنار تلظى عليكم كلما خبت زادها الله سعيرا .

فثارت ثائرة ابن خديج وقال :

ـ انى انما اقتلك بعثمان .

ـ وما انت وعثمان ؟ ! .

فاستل ابن خديج سيفه ، وضرب به عنق محمد ، ففاضت روح عابد قريش ، وربيب على ، وابن الصديق ، واحس عبد الرحمن كان سيفا قد غاص فى قلبه فمزقه ، وشعر بروحه تدمى ، واستولى عليه حزن شديد ، فقد رأى مصرع اخيه الأليم ، وشاهد الفاجعة العظمى ولم يستطع لها دفعا ، فجعلت نار الغيظ تأكل صدره ، ولم يكتف ابن خديج بقتل محمد ، بل حز رأسه وبعث به الى معاوية بن ابى سفيان بالشام ، وجاء بحمار ، وادخل محمدا فى جوفه ثم احرقه عليه بالنار . فلما رأى عبد الرحمن ما يفعل ابن خديج

بجسد أخيه ثارت ثائرته ، وهجم عليه ، ولكن القوم احاطوا به ، وتكاثروا عليه ومنعوه · واندلعت ألسنة النار ، فبان الألم المروع في وجه عبد الرحمن · وأحس كأن النار تشوى كبده ، وتلسع روحه لسعا ، وفاحت رائحة الشواء ، وملأت خياشيمه ، فاحس نارا تملأ صدره ، فتأوه ألما ، وأخذت النار في الخمود ، وابتدأ الناس في الانصراف حتى اقفر المكان الا من الشـــواء وعبد الرحمـــن ، ثم انصرف عبد الرحمن ودمعه حار . يكاد يجن من شدة الألم ·

★ ★ ★

كان الحجاج بن غزية الانصاري مع محمـــد بن ابى بكر في مصر ، فلما راى مقتـــله المروع خرج الى على ليحدثه بمـــا رأى وعاين ، فانطـــلق الى الكوفة ليبـــلغ الامام خروج مصر من يده ، وهلاك محمد ومصرعه ، وكتب عمرو الى معاوية :

« اما بعد فانا لقينا محمد بن ابى بكر وكنانة بن بشر في جموع جمة من أهل مصر ، فدعوناهم الى الهدى والسنة وحكم الكتاب ، فرفضوا الحق وتوركوا في الضلال ، فجاهدناهم ، واستنصرنا الله عليهم ، فضرب الله وجوههم وأدبارهم ، ومنحونا أكتافهم فقتل الله محمد بن أبى بكر وكنانة بن بشر وأماثل القـــوم والحمـــد لله رب العالمين والسلام عليك » ودفع بالكتاب الى رسول فخرج الرسول الى الشام يحمل اليهم نبأ فتح مصر وقتل ابن الصديق وبلغ الكتاب معاوية فظهر الرضى في وجهه ، وأثنى على المنبر بقتل محمد فأظهر الناس سرورهم · وسمع عبد الرحمن بن شبيب الفزارى بقتل محمد فحزن وساءه النبأ فقد كان عين على بالشـــام · ولما استوثق من هلاك محمد ، خرج ليأتي عليا بالنبأ الفادح ·

رأى عبد الرحمن بن أبى بكر مصرع أخيه ، فجعل يتلوى من

الألم ، وانصرف وقد شفه الحزن ، ولم تطفىء دمعه النار التى تأججت فى صدره ، لقد قتل محمد ولم يكتف بقتله ، بل مثل به وما أبشعها من مثله ، فيا ليت عبد الرحمن ما خرج مع القوم الجفاة وعزم على الانطلاق الى دار أخيه ليحمل أهله الى عائشة ، وما فكر عائشة حتى ازداد حزنا ، فستجزع على محمد اشد الجزع ، وستبكيه أحر البكاء ، فانه ليعلم مقدار حبها لآل الصديق ، وجهز عبد الرحمن أهل بيت أخيه وحملهم وخرج الى مدينة الرسول مخلفا وراءه فاجعة مروعة ، وذكرى اليمة لا يخفف من الهاكر السنين .

ودخل الانصارى الكوفة ، واقبل بعده الفزارى ، وقدما على على ، فراح الانصارى يقص ما راى ، فرؤى الحزن فى وجه الامام وتبين فيه ، وقال الفزارى :

ـ انى لم أخرج من الشام حتى قدمت البشراء من قبل عمرو ابن العاص تترى يتبع بعضها بعضا بفتح مصر وقتل محمد بن ابى بكر ، وحتى اذن بقتله على المنبر ، واطرق الجميع ، وساد الحزن المكان ، ثم قال الفزارى فى حزن :

ـ يا أمير المؤمنين ، قلما رايت قوما قط اسر ، ولا سرورا قط اظهر من سرور رأيته بالشام حين أتاهم هلاك محمد بن ابى بكر .

فقال على :

ـ أما ان حزننا عليه على قدر سرورهم به ، لا بل يزيد اضعافا .

وبعث على الى القوم المنطلقين الى مصر للانضمام الى محمد ليردهم من الطريق ، فقد انتهى الأمر ، وقتل محمد ، وما ساروا الا خمسا ، وقام على فى الناس خطيبا ، وقد تملكه الحزن والغضب .

فحمد الله واثنى عليه وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم وقال :

ـ الا ان مصر قد افتتحها الفجرة أولو الجور والظلم الذين صدوا عن سبيل الله . وبغوا الاسلام عوجا • الا وان محمد بن ابى بكر قد استشهد رحمه الله فعند الله نحتسبه ، اما والله ان كان ما علمت لمن ينتظر القضاء ويعمل للجزاء • ويبغض شكل الفاجر ، ويحب هدى المؤمن . انى والله ما الوم نفسى على التقصير ، وانى لمقاساة الحرب لجد خبير . وانى لأقدم على الأمر . وأعرف وجه الحزم . وأقوم فيكم بالرأى المصيب . فاستصرخكم معلنا . وأناديكم نداء المستغيث معربا . فلا تسمعون لى قولا. ولا تطيعون لى امرا . حتى تصير بى الأمور الى عواقب المساءة . فانتم القوم لا يدرك بكم الثار . ولا ينقض بكم الأوتار . دعوتكم الى غياث اخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة . فتجرجرتم جرجرة الجمل الاشدق . وتثاقلتم الى الأرض تثاقل من ليس له نية فى جهاد العدو ، ولا اكتساب الأجر . ثم خرج الى منكم جنيد متذائب كثيره يساقون الى الموت وهم ينظرون . فاف لكم •

★ ★ ★

وبلغ النبا الفادح عائشة فأذهلها • وقبض صدرها . وأسال الدمع مدرارا من ماقيها . وجعلت تردد :

ـ كنت اعده ولدا واخا . وكان له فضل وعبادة •

ولم تستطع ان تكبت حزنها فراحت تدعو على معاوية وعمرو فى دبر كل صلاة وعيونها تسح . وقلبها يفيض شجنا . وقدم عبد الرحمن عليها ومعه ابنا اخيه . فلما رأتهما عائشة ضمتهما

الى صـــــدرها فى حنـــان . وجعلت تقبلهمـا فى وله . وخانتهـ
عيونهـا . فلم تقدر على حبس دموعها فطفرت وانهمرت . فتجدد
أحزان عبد الرحمن فأحس العبرات تخنقـه . والحزن يجثم على
صدره ويهصر قلبه هصرا .

وشاء عبد الرحمن أن يضم الصغيرين الى عياله . ولكن عائشة
مانعت وقبضتهما اليها لتعوضهما حنان الأب الراحل . فأغضب ذلك
عبد الرحمن فترك الدار وقد عزم فى نفسه على الا يعود بعدها الى
عائشة .

ومرت الأيام . وعبق الجو برائحة شواء . وملأت الرائحة انف
عائشة . فتغيرت هيئتها واكفهر وجهها . واحست سكينا يقطع نياط
قلبها . فقد اعادت الرائحة الى اعين خيـالها المأســاة المروعة .
فثارت . فقطن من فى الدار الى الباعث على هذه الثورة فعملوا على
الا يشوى شواء بعدها . وعاشت عائشة لا ترى شواء . ولا تذوق
له طعما .

الفصل الثلاثون

مسرح الحياة

مرت الحوادث وكرت السنون . فدالت دولة وقامت دولة . واختفى من مسرح الحياة أناس لطالما اضطلعوا بدور البطولة ليحل مكانهم منافسوهم الذين طالما اشتهوا القيام بهذه الأدوار الحبيبة الى النفوس . والذين طالما دسوا لنافسيهم وناوءوهم حتى أزالوهم من طريقهم . ليقوموا وحدهم بتمثيل الرواية . وما تبتدىء الرواية فى الانطلاق . وما أن يأخذ كل ممثل فى تمثيل دوره حتى تثور فرقة أخرى وتدعى أنها أحق بتمثيل هذه الرواية . فتبتدىء المناوشات بين الفرقتين . ثم تشتد المناوشات فتصبح قتالا . ثم ينجلى القتال عن انتصار فرقة . فتحتل المسرح وتبتدىء فى التمثيل . فتقوم فرقة جديدة . أو فرقة مكونة من فلول المنهزمين ، وتدعى أحقيتها بالرواية فتتكرر الحوادث . وتعاد الفعال . وتأخذ عجلة الزمن فى الدوران لتطوى هؤلاء وهؤلاء وتنشر آخرين تبهرهم الرواية فيتوقون اليها ويتطلعون . فينقسمون ويتناحرون . فمن يفوز بالدور الأول يقتله خصمه أو يطويه عمره .

قتل على . وارتدى معاوية ثياب الخلافة . فراح يقسم الولايات على أنصاره وأعوانه . فدالت دولة بنى هاشم وقامت دولة بنى أمية . ولم يرض الهاشميون عن هذا . فجعل الحسين بن على يرقب

الحوادث ليثب على من سلبه سلطان ابيه . ورأى ابن الزبير انه أحق من يقوم بدور الخليفة . وتمنت أسماء أن ترى ابنها يخطر على مسرح الحياة فى ثياب الخلافة ، فهو الفارس العنيد وابن حوارى الرسول وحفيد الصديق . فأخذت تحضه على طلبها ، فراح ابن الزبير ينتظر الفرصة المواتية ليضع العراقيل فى سبيل الخليفة الجديد . وانطلقت الرواية فى طريقها التقليدى . فولى معاوية عمرو بن العاص على مصر . فلما مات ولى ابنه عبد الله . ولكن لما كان هناك فى مصر أناس ساعدوه على اغتصابها ينتظرون الاجر فقد عزل عبد الله وولى معاوية بن خديج الذى ثار على محمد بن ابى بكر وقتله . وحدث أن مر به عبد الرحمن بن ابى بكر وقد جاء من الاسكندرية فقال له :

ـ يا معاوية قد لعمرى أخذت من معاوية جزاءك . قتلت محمد ابن ابى بكر لأن تلى مصر فقد وليتها .

ـ ما قتلت محمد بن أبى بكر الا بما صنع بعثمان .

ـ فلو كنت انما تطلب بدم عثمان لم تشرك معاوية فيما صنع ، حيث صنع عمرو بن العاص بالأشعرى ما صنع ، فوثبت أول الناس فبايعته .

وخرج عبد الرحمن وبقى ابن خديج فرحان بدوره الجديد الذى يمثله . ولكنه لو درى أن دوره هذا أقصر مما يظن ، وأن معاوية عما قليل يعزله ليولى مسلمة بن مخلد الانصارى الذى عاونه ايضا فى اغتصاب مصر وينتظر جزاءه . لعلم أن فرحه سراب .

ونمت عائشة بنت طلحة وتفتحت فى بيت خالتها عائشة . فكانت باهرة الحسن ، رائعة الجمال ، وقد اهلها جمالها لتبرز على مسرح

الحياة لتكون قبلة العيون ، وأمنية النفوس ، ان شباب آل الصديق يتمنونها جميعا ، ترى من بها يفوز ؟

وجمع المسجد الحرام بين عبد الله بن مروان ، وعبد الله بن الزبير وأخويه مصعب وعروة ، فقال بعضهم :

ـ هلم فلنتمنه ·

فأطرق عبد الله قليلا ، ولما كانت الخلافة هي شغله الشاغل ، وأمنية الليل والنهار ، فانه رفع رأسه وقال : ·

ـ منيتي ان املك الحرمين ، وأنال الخلافة ·

وقال مصعب ، وهو فتى طموح يحب الدنيا ويحب الملك :

ـ منيتي أن أملك العراقين ، وأجمع بين عقيلتي قريش : سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة ·

وقال عبد الملك ، وهو فتى بني أمية ، المتطلع الى ملك الآباء :

ـ منيتي ان أملك الأرض كلها واخلف معاوية ·

ولم يبق الا عروة الزاهد في الدنيا ، الطامع فيما عند الله فقال :

ـ لست في شيء مما أنتم فيه ، منيتي الزهد في الدنيا ، والفوز بالجنة في الآخرة ·

★ ★ ★

وجلست أم المؤمنين وقد جلس بجوارها القاسم وعبد الله ابنا أخيها محمد وقد قويا على أنفسهما ، فتذكرت إعراض عبد الرحمن عنها منذ قبضتهما اليها ، ففكرت في أن تدعو أخاها وتدفع بهما اليه ، فبعثت الى عبد الرحمن فلما وافاها قالت :

ـ يا أخي ، اني لم ازل أراك معرضا عني منذ قبضت البنين منك ، ووالله ما قبضتهما تطاولا عليك ، ولا تهمة لك فيهما ، ولا شيء

تكرهه ، ولكن كنت رجلا ذا نســاء ، وكانا صبيين لا يكفيان من انفسهما شيئا ، فخشيت ان يرى نساؤك منهما ما يقذرون به من قبيح امر الصبيان ، فكنت الطف لذلك واحق بولايته ، فقد قويا على انفسهما ، وشبا وعرفا ما يأتيان ، فهاهما هذان فضمهما اليك وكن لهما كجحية بن المضرب اخي كندة ، فانه كان له اخ يقال له معدان فمات وترك صبية صغارا في حجر اخيه ، فكان ابر الناس بهم واعطفهم عليهم ، وكان يؤثرهم على صبيانه فمكث بذلك ما شاء الله ، ثم انه عرض له سفر ، لم يجد بدا من الخروج فيه ، فخرج واوصى بهم امراته ، وكانت احدى بنــات عمــه ، وكان يقال لها زينب ، فقال لها : « اصنعي ببني اخي ما كنت اصنع بهم » ثم مضى لوجهه ، فغاب شهرا ، ثم رجع وقد ساءت حال الصبيان وتغيرت فقال : « ويلك ما لي أرى بني معدان مهازيل ، وارى بني سمانا ؟ » قالت : « قد كنت اواسي بينهم ولكنهم كانوا يعبثون ويلعبون » . فخلا بالصبيان وقال : « كيف كانت زينب تفعــل بكم » ؟ فقالوا « سيئة ، ما كانت تعطينا من القوت الا ملء هذا القدح من لبن » واروه قدحا صغيرا ، فغضب على امراته غضبا شديدا ، وتركهــا حتى اذا راح راعيا ابله قال لهما : « فانتما وابلكما لبني معدان » فغضبت من ذلك زينب وهجرته ، وضربت بينه وبينهــا حجابا ، فقال لها : « والله لا تذوقين منها صبوحا ولا غبوقا أبدا » وقال في ذلك :

لججنا ولجت هذه في التغضب

ولط الحجــاب بيننــا والتجنب

وحطت بردى أثعد جفن عينها
لتقتلني وشد ما حب زينب

تلوم على مال شفاني مكانه
فلومي حناني ما بدا لك واغضبي

رحمت بني معدان اذ قل مالهم
وحق لهم مني ورب المحصب

وكان اليتامى لا يسد اختلالهم
هدا يالهم في كل قعب مشعب

فقلت لعبدينا اريحا عليهم
ما جعل بيتي بيت آخر مغرب

وقلت خذوها واعلموا أن عمكم
هو اليوم اولى منكم بالتكسب

عيالي احق ان ينالوا خصاصة
وان يشربوا رنقا الى حين مكسب

احابى بها من لو قصدت لما له
حزينا لآساني على كل مركب

اخي والذي ان أدعه لعظيمة
يجبني وان اغضب الى السيف يغضب

فلما بلغ هذا الشعر زينب ، خرجت حتى أتت المدينة فاسلمت وذلك في ولاية عمر بن الخطاب ، فقدم حجية المدينة ، فطلب زينب أن ترد عليه ، وكان نصرانيا ، فنزل بالزبير ، فأخبره بقصته ، فقال له : ، اياك أن يبلغ هذا عنك عمر فتلقى منه أذى ، وانتشر خبر حجية بالمدينة ، وعلم فيم كان مقدمه ، فبلغ ذلك عمر ، فقال للزبير ، قد بلغني قصة ضيفك ، ولقد هممت به لولا تحرمه بالنزول

عليك » . فرجع الزبير الى حجية . . فاعلمه قول عمر . فمدحه بأبيات . ثم انصرف من عنده متوجها الى بلده ، آيسا من زينب . كئيبا حزينا . وأنا والله يا أخي خشيت عليك من مثل ذلك لئلا يصيبك من شأنك ما أصاب حجية وزينب .

وصمتت عائشة قليلا والتفتت الى ابنى محمد وقالت :

ـ أما الآن فقد كبرا فخذهما .

فأخذ عبد الرحمن القاسم وعبد الله ابنى أخيه وخرج وقد بان في وجهه الرضا والسرور .

★ ★ ★

رأت أم المؤمنين عائشة نضج عائشة بنت طلحة ونضارتها . وحسنها الأخاذ . فشاءت أن تقدم درة آل الصديق الى فتى من البيت العريق ، فراحت تفكر لها في كفء من شباب الأسرة . فوجدت أن عبد الله ابن أخيها عبد الرحمن أحقهم بها . فزوجت حفيد الصديق من حفيدة الصديق . وكانت عائشة الصغيرة ذات دلال . وكانت معجبة بجمالها . فجعلت تعرض عن زوجها حينا ، وتضايقه أحيانا . ولكن زوجها كان يغفر لها هناتها فقد كان يحبها ، وكان مقيما بها . وفى يوم من الأيام صارمت زوجها ، فخرجت من دارها غضبى . وانطلقت الى خالتها أم المؤمنين . فمرت فى المسجد وعليها ملحفة . فلما رآها الشيخ الفانى أبو هريرة أخذ . وراعه جمالها فقال :

ـ سبحان الله . كأنها من الحور العين .

وبقيت عائشة فى بيت أم المؤمنين أربعة أشهر ، وعبد الله غاضبا حانقا . فقيل له طلقها . فلم يطاوعه قلبه . فانه يهيم بها حبا وان قست عليه . وان ضايقته بسوء خلقها فقال :

يقولون طلقها لأصبح ثاويا

مقيما على الهم أحلام نائم

وان فراقى اهل بيت أحبهم

لهم زلفة عندى لاحدى العظائم

وصالح عبد الله عائشة . وعاد الى البيت ليعود الشقاق والنزاع . ولينال عبد الله منها عنتا كثيرا .

الفصل الحادى والثلاثون

هرقلية وكسروية

استتب الأمر لمعاوية ، وكانت فكرة استخلاف ابنه يزيد تراوده انه أحب الناس اليه ، وانه ليتمنى ان يخلفه ، ولكنه لا يستطيع ان يعلن رغبته ، وان يكشف أمنيته ، فهناك من يتطلعون الى الخلافة ، فاذا جهر بما يحب الب القوم عليه ، فراح يذكر يزيد بالخير كلما سنحت فرصة ليحببه الي الناس ، وليهيئهم لقبوله خليفة عليهم وحدث ان قدم المغيرة بن شعبة على معاوية ، وكان المغيرة يعلم هواه فقال له :

ـ يا أمير المؤمنين قد علمت ما لقيت هذه الأمة من الفتنة والاختلاف ، وفى عنقك الموت ، وانا أخاف ان حدث بك حدث ان يقع الناس فى مثل ما وقعوا فيه بعد قتل عثمان ، فاجعل للناس بعدك علما يفزعون اليه ، واجعل ذلك يزيد ابنك .

ووافق هذا القول هوى فى نفس معاوية ، فعزم على أن يدعو الى تولية ابنه من بعده ، انه ليعلم أن الطريق شائك ، وأن الصعاب كثيرة ، ولكن كل المتاعب تهون فى سبيل الابن الحبيب .

وفكر معاوية وأمعن فى التفكير ، فهناك فى الحجاز من يفضلون يزيد ، ومن يطمعون فى الخلافة ، فكيف بهم اذا رفضوا البيعة وشقوا عصا الطاعة ، ورأى معاوية ان يبدأ محاولته فى الشام حيث العزة والأهل ، فاذا ما اخذ البيعة لابنه تفرغ للحجاز

واهله ولن تعييه الحيل . ولن يقصر دهاؤه عن ان يتفتق عما ينيله رغبته ، ويحقق امنيته ٠

واجتمعت عند معاوية وفود الأمصار بدمشق . فشاء أن يهتبل الفرصة المواتية فدعا احد انصاره وقال له :

ـ اذا جلست على المنبر وفرغت من بعض موعظتي وكلامي فاستأذن في القيام . فاذا اذنت لك فاحمد الله تعالى واذكر يزيد ، وقل فيه الذي يحق له عليك من حسن الثناء عليه . ثم ادعني الى توليته بعدي . فاني قد رأيت واجمعت على توليته . فاسأل الله في ذلك وفي غيره الخيرة وحسن القضاء ٠

ودعا معاوية آخرين فأمرهم ان يقوموا اذا فرغ صاحبه وان يصدقوا قوله . ويدعوه الى يزيد ٠

واعتلى معاوية المنبر . وفرغ من بعض موعظته ، فقام الرجل فاستأذن في الكلام . فأذن له . فجعل يعدد فضائل يزيد ثم التمس من امير المؤمنين أن يعزم على مبايعته . ولا يضيق به ذرعا . فانه يجمع به الشمل ، ويعظم به الاجر ، ويحسن به الزخر ٠ ثم جلس ، فقام آخر ثم آخر . فلما انتهى اعوان معاوية انشرح صدره فقد قالوا واحسنوا . ولكن لم تتم غبطة امير المؤمنين . فقد شاء ان يسمع رأى الأحنف من العراق ، فقال : « اين الأحنف ؟ » ٠ فاجابه . قال : « الا تتكلم ؟ » ٠ فقام الأحنف فحمد الله واثنى ثم قال :

ـ أصلح الله أمير المؤمنين . ان الناس قد امسوا في منكر زمان قد سلف . ومعروف زمان مؤتنف . ويزيد بن أمير المؤمنين نعم الخلف . وقد حلبت الدهر اشطره . يا امير المؤمنين فاعرف من تسند اليه الأمر من بعدك . ثم اعص أمر من يأمرك . لا يغررك من يشير عليك ولا ينظر لك . وانت أنظر للجماعة ، واعلم

باستقامة الطاعة ، مع أن اهل الحجاز واهل العراق لا يرضون بهذا ولا يبايعون ليزيد ما كان الحسن حيا ٠

فقام من قام اولا يذب عن يزيد ، ثم قام آخر ، ثم قام معاوية ليفتر ويتوعد ويبرق ويرعد ، لينفس عن الغيظ الذى نزل بصدره لما راى ان هناك من لا تطيب نفوسهم لتولية ابنه غير هؤلاء القابعين بالحجاز ، المتأهبين للوثوب ٠ واعرض معاوية عن ذكر البيعة ، ولم يكن اعراضه نهائيا ، بل راح يفكر ويتدبر ، ويعمل على تدعيم مركز يزيد ٠

واستقر عزم معاوية على ان ينطلق الى المدينة ليفاوض هؤلاء النفر الذين يأبون المبايعة ليزيد ، وليتوعدهم مرة وليعدهم مرارا ، لعله يستطيع أن يطويهم بدهائه ، او يشتريهم بماله ، وقدم المدينة فخرج الناس لاستقبال امير المؤمنين ٠ فبش لهم وهش ، وراح يتملقهم لعله يكسبهم الى جانبه فى معركة الخلافة القائمة ٠

ودخل منزله ، ولم يضيع كثير وقت ، فقد كانت رغبة استطلاع راى هؤلاء النفر تقلقه ، فبعث الى عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر بن ابى طالب والى عبد الله بن عمر والى عبد الله بن الزبير ، فلما اكتمل عقدهم ، امر حاجبه ان لا يأذن لاحد من الناس ، حتى يخرج هؤلاء النفر ، والتفت اليهم وقال :

ـ الحمد لله الذى امرنا بحمده ، ووعدنا عليه ثوابه ، نحمده كثيرا ، كما انعم علينا كثيرا ، وأشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وان محمدا عبده ورسوله ٠ أما بعد : فانى قد كبر سنى ، ووهن عظمى ، وقرب اجلى ، واوشكت ان ادعى فاجيب ، وقد رأيت ان اخلف عليكم بعدى يزيد ، ورأيته لكم رضا ، وانتم عبادلة قريش وخيارها وابناء خيارها ، ولم يمنعنى أن أحضر حسنا وحسينا الا

انهما اولاد ابيهما ، على حسن رايى فيهما ، وشديد محبتى لهما ، تردوا على أمير المؤمنين خيرا يرحمكم الله •

فتكلم عبد الله بن عباس :

ـ الحمد لله الذى الهمنا أن نحمده ، واستوجب علينـا الشكر على آلائه ، وحسن بلائه ، وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له ، وان محمدا عبده ورسوله ، وصلى الله على محمد وآل محمد اما بعد : فانك قد تكلمت فانصتنـا ، وقلت فسمعنا ، وان الله جل ثناؤه ، وتقدست اسـماؤه ، اختار محمدا صـلى الله عليه وسلم لرسالته ، واختاره لوحيه وشرفه على خلقه ، فاشرف الناس من تشرف به ، وأولاهم بالأمر اخصهم به ، وانما على الأمة التسليم لنبيها اذ اختاره الله لها ، فانه انما اختار محمـدا بعلمـه ، وهو العليم الخبير ، واستغفر الله لى ولكم •

فقام عبد الله بن جعفر فقال :

ـ الحمد لله اهل الحمد ومنتهاه ، نحمده على الهامنا حمده ، ونرغب اليه فى تأدية حقه ، واشهد أن لا اله الا الله واحدا صمدا ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم • اما بعد فان هذه الخلافة ان اخذ فيها بالقرآن فأولو الأرحام بعضهم اولى ببعض فى كتاب الله • وان اخذ فيها بسـنة الشيخين ابى بكر وعمر ، فأى الناس افضل واكمل واحق بهـذا الأمر من آل الرسول ، وايم الله لو ولوه بعد نبيهم لوضعوا الأمر موضـعه لحقه ولأطيـع ، وعصى الشـيطان وما اختلف فى الأمـة سيفان ، فاتق الله يا معاوية ، فانك صرت راعيا ونحن رعية ، فانظر لرعيتك انك مسئول عنها غدا • وأما ما ذكرت من ابنى عمى وتركك ان تحضرهما ، فوالله ما اصبت الحق ، ولا يجوز لك ذلك الا بهما ،

• وانك لتعلم انهما معدن العلم والكرم . فقل أو دع ، واستغفر الله لى ولكم .

ورأى حفيد الصديق ان كلا يطلبها لاهله . وهو يتمناها ويطلبها لنفسه ، فقام وقال :

ـ الحمد لله الذى عرفنا دينه ، وأكرمنا برسوله . احمده على ما ابلى وأولى . واشهد ان لا اله الا الله ، وان محمدا عبده ورسوله . اما بعد : فان هذه الخلافة لقريش خاصة ، تتناولها بمآثرها السنية ، وأفعالها المرضية ، مع شرف الآباء وكرم الأبناء . فاتق الله يا معاوية ، وانصف من نفسك . فان هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله . وانا عبد الله بن الزبير ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى خلف حسنا وحسينا ، وانت تعلم من هما وما هما ، فاتق الله يا معاوية ، وانت الحاكم بيننا وبين نفسك .

وقام عبد الله بن عمر فقال :

ـ اما بعد : فان هذه الخلافة ليست بهرقلية ولا كسروية يتوارثها الابناء عن الآباء ، ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبى . فوالله ما أدخلنى مع الستة من اصحاب الشورى ، الا على ان الخلافة ليس شرطا مشروطا ، وانما هى فى قريش خاصة لمن كان لها اهلا ممن ارتضاه المسلمون لانفسهم من كان أتقى وارضى . فان كنت تريد الفتيان من قريش فلعمرى ان يزيد من فتيانها ، واعلم انه لا يغنى عنك من الله شيئا .

فنظر معاوية اليهم وقال :

ـ قد قلت وقلتم ، وانه قد ذهبت الآباء وبقيت الأبناء ، فابنى احب الى من ابنائهم ، مع ان ابنى قاولتموه وجد مقالا ، وانما كان هذا الأمر لبنى عبد مناف لأنهم اهل رسول الله ، فلما مضى رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، ولى الناس أبا بكر وعمر من غير معدن الملك ولا الخلافة . غير أنهما سارا بسيرة جميلة ، ثم رجع الملك الى بني عبد مناف . فلا يزال فيهم الى يوم القيامة ، وقد أخرجك الله يا بن الزبير . وأنت يا بن عمر منها . فأما ابنا عمى هذان فليسا بخارجين من الرأى ان شاء الله .

وخرج معاوية الى الشام ، وسكت عن البيعة ، ولم يكن سكوته اقتناعه بأن هناك من هو أحق بها من يزيد . بل كان يفكر ويدبر . ان الحسن بن على حجر عثرة فى سبيل تولية يزيد . وان يزيد احب اليه من العالمين . فلو أن الحسن قضى لاصبح الامر هينا لينا . فراح معاوية ينتظر وهو يعلم ان الزمن من اعوانه .

ومرض الحسن فأسرع عامل المدينة وكتب الى معاوية بشكايته . فكتب اليه معاوية . « ان استطعت ان لا يمضى يوم بى يمر الا يأتينى فيه خبره فافعل » .

ان معاوية ليتعجل النهاية . وان الرسل لتفد على الشام كل يوم تحمل أنباء مرض الحسن . واقبل الرسول الأخير . يحمل النبأ المرتقب : ان الحسن قد مات . ودخل على معاوية فى المسجد ودفع اليه بالكتاب . فلما بشره وقرأه . بان الفرح فى وجهه . واعلن النبأ فى ابتهاج وسجد وسجد من كان معه . وبلغ ذلك عبد الله بن عباس . وكان بالشام يومئذ . وساءه ما فعل معاوية . فدخل عليه وجلس وكان الغضب يأكل صدره . ومرجل حنقه يكاد ان ينفجر . والتفت معاوية اليه وقال فى هدوء :

ـ يا بن عباس . هلك الحسن بن علي .

فقال ابن عباس فى حزن :

ـ نعم هلك . انا لله وانا اليه راجعون .. انا لله وانا اليه

راجعون . وقد بلغنى الذى اظهرت من الفرح والسرور لوفاته . أما والله ما سد جسده حفرتك ، ولا زاد نقصان أجله فى عمرك ، ولقد مات وهو خير منك . ولئن اصبنا به لقد اصبنا بمن كان خيرا منه : جده رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجبر الله مصيبته . وخلف علينا من بعده أحسن الخلافة .

ولم يستطع ابن عباس ان يستمر فى مقالته ، فقد تهدج صوته ، وخنقته عبراته . فشهق وبكى . وخيم على المكان وجوم . ورفرف الحزن فبكى من حضر فى المجلس وبكى معاوية . ترى ابكوا على الحسن ام بكوا على أنفسهم ؟ والتفت معاوية الى ابن عباس وقال :

ـ بلغنى انه ترك بنين صغارا .

ـ كلنا كان صغيرا فكبر .

ـ كم اتى له من العمر ؟

ـ أمر الحسن اعظم من أن يجهل أحد مولده .

وسكت معاوية يسيرا ، وأطرق يفكر ، فرأى ان يفرق بين الأهل ، لعله يصل الى أمنيته ، فرفع رأسه وقال :

ـ يا بن العباس اصبحت سيد قومك من بعده .

ـ أما ما أبقى الله أبا عبد الله الحسين فلا .

فضاق صدر معاوية فقال :

ـ لله ابوك يا بن عباس ، ما استنبأتك الا وجدتك معدا .

مات الحسن ، وخلا الجو لمعاوية ، فبايع ليزيد بالشام ، وكتب ببيعته الى الآفاق ، وبلغ الكتاب مروان بن الحكم عامله على المدينة ، فقام فى الناس فقال :

ـ ان أمير المؤمنين رأى أن يستخلف عليكم ولده يزيد ، سنة ابى بكر وعمر .

فثـار عبد الرحمن بن أبى بكر ، فانه ليبغض معـاوية اشـد البغض بعد قتل أخيه محمد ، فقام وقال :

ـ بل سنة كسرى وقيصر ، ان ابا بكر وعمر لم يجعلاها فى أولادهما ، ولا فى احد من اهل بيتهما ٠

فماج الناس ، وشاء مروان أن يفحم عبد الرحمن ، فقال له :

ـ اسـكت أنت فأنك أنت الذى انزل الله فيـك : « والذى قال لوالديه اف لكما اتعداننى ان أخرج » ٠

وابت قريش البيعة ليزيد ، وذهب عبـد الرحمن الى عائشـة حزينا مكتئبا ، فلما سالته عما به ، ابلغها مقالة مروان ، فقالت عائشة :

ـ ما انزل الله فينا شيئا من القرآن ، الا انه أنزل عذرى ٠

وبعثت عائشة الى مروان تعتب عليه أشـد العتب ، ولما راى مروان احجام القوم عن البيعة لم يسـؤه ذلك ، بل لعل امتناعهم هذا أرضاه بعض الرضا أو كل الرضا ، فقد كان مروان يطمع فى الخلافة وينتظر اختفاء معاوية ليبرز على مسرح الحياة فيمن يبرز للاصطراع على دور الخليفة ، فكتب الى معاوية : « ان قومك قد أبوا اجابتك الى بيعتك ابنك فارنى رأيك » فتضايق معاوية ، وظهر ضيقه فى رده فقد كتب الى مروان يأمره أن يعتزل عمله ، ويخبره أنه قد ولى المدينة سعيد بن العاص ٠

وتولى سعيد بن العاص المدينة ، وجاءه كتـاب أمير المؤمنين يأمره ان يدعو أهل المدينة الى البيعة ، ويكتب اليه بمن يسارع ممن لم يسارع ، فراح يدعو الناس الى البيعـة ليزيد فلم يجبه احد ، فأظهر الغلظـة ، وأخذهم بالشـدة ، وعلى الرغم من كل ذلك فلم يسارع الناس الى تلبيته ، وراح ابن الزبير يدعو الى عدم البيعة

وينكر ذلك انكارا شديدا أطار صواب سعيد بن العاص . فلم يعد يرى ما يفعل سوى ان يرفع الأمر الى معاوية فكتب له : « اما بعد فانك أمرتنى ان ادعو الناس لبيعة يزيد أمير المؤمنين ، وأن أكتب اليك بمن سارع ممن ابطأ ، وانى أخبرك ان الناس عن ذلك بطاء ، لا سيما أهل البيت من بنى هاشم . فانه لم يجبنى منهم أحد . وبلغنى عنهم ما أكره . وأما الذى جاهر بعدوانه وابائه لهذا الأمر فعبد الله ابن الزبير . ولست اقوى عليهم الا بالخيل والرجال او تقدم بنفسك فترى رايك فى ذلك والسلام » .

وشاء معاوية ان يتألف عبد الرحمن بن ابى بكر بعد رفضه البيعة . وأن يكسبه الى صفه فبعث اليه بمائة الف درهم . فلما بلغت عبد الرحمن ردها وقال :

ـ أبيع دينى بدنياى .

وفكر معاوية فيما يفعل مع هؤلاء الذين وقفوا فى وجهه . واعترضوا امنيته العزيزة . فراى أن يكتب اليهم قبل أن يقدم عليهم فكتب الى عبد الله بن عباس . والى عبد الله بن الزبير . والى عبد الله بن جعفر ، والى الحسين بن على كتبا ، وامر سعيد بن العاص أن يوصلها اليهم ويبعث بجواباتهم . وكتب اليه : « أما بعد : فقد جاءنى كتابك ، وفهمت ما فيه من ابطاء الناس عن البيعة . ولا سيما بنى هاشم وما ذكر ابن الزبير . وقد كتبت الى رؤسائهم كتبا فسلمها اليهم ، وتنجز جواباتها ، وابعث بها الى حتى أرى فى ذلك رايى ، ولتشد عزيمتك ، ولتصلب شكيمتك ، وتحسن نيتك ، وعليك بالرفق ، واياك والخرق ، فان الرفق رشد والخرق نكد ، وانظر حسينا خاصة فلا يناله منك مكروه ، فان له قرابة وحقا عظيما لا ينكره مسلم ولا مسلمة ، وهو ليث عرين ، ولست امنك ان شاورته لا

تقوى عليه . فلما من يرد مع السباع اذا وردت . ويكنس اذا كنست فتلك عبد الله بن الزبير فاحذره أشد الحذر . ولا قوة الا بالله . وانا قادم عليك ان شاء الله والسلام .

وبلغت الكتب الى سعيد بن العاص فبعث بها الى اصحابها ، فلما بلغ كتاب أمير المؤمنين ابن الزبير قرأ :

رأيت كرام الناس ان كف عنهم ... بحلم رأوا فضلا لمن قد تحلما
ولا سيما ان كان عفوا بقدرة ... فذلك احرى ان يجل ويعظما
ولست بذى لؤم فتعذر بالذى ... أتيته من اخلاق من كان الوما
ولكن غشا لست تعرف غيره ... وقد غش قبل اليوم ابليس آدما
فما غش الا نفسه فى فعاله ... فاصبح ملعونا وقد كان مكرما
وانى لاخشى أن انالك بالذى ... اردت فيجزى الله من كان اظلما

فلما انتهى ابن الزبير من قراءة كتاب معاوية . كتب اليه

الا سمع الذى ان عبده ... فخزى اله الناس من كان اظلما
أجرى على الله العظيم بحلمه ... واسرعهم فى الموبقات تقحما
اغرك ان قالوا حليم بعزة ... وليس بذى حلم ولكن تحلما
ولو رمت ما ان قدعزمت وجدتنى ... هزبر عرين يترك القرن اكتما
واقسم لولا بيعة لك لم اكن ... لانقضها لم تنج منى مسلما

وبلغت معاوية جوابات كتبه . وكانت كلها تحديا ظاهرا ، وامعانا فى الرفض وكراهية لبيعته ليزيد . فافلت منه زمام حلمه ، فكتب الى عامله أن يأخذ أهل المدينة بالبيعة ليزيد اخذا بغلظة وشدة . ولا يدع أحدا من المهاجرين والأنصار وأبنائهم حتى يبايعوا . وامره ألا يحرك هؤلاء النفر ولا يهيجهم . لا حبا لهم ولكن خشية ان يندلع لهيب ثورة تقوض ملكه . وتذهب بخلافته .

فأخذ سعيد بن العاص الناس بالبيعة أعنف ما يكون من الاخذ

واغلظه . ولكن الناس استمروا على موقفهم من يزيد . فلا الوعد أمالهم . ولا الوعيد هزمهم . وضــاقت الحيل بســعيد . فكتب الى معاوية : « انه لم يبايعنى احد . وانما الناس تبع لهؤلاء النفر . فلو بايعوك بايعك الناس جميعا ولم يتخلف عنك أحد » فكتب اليه معاوية يأمره الا يحركهم الى أن يقدم .

وذهب معاوية للحج . وخرج فى خلق كثير من أهل الشام حتى اذا ما ظهرت له أرباض المدينة ، القى اناسا يستقبلونه بين راكب وماش فبش لهم وأظهر لهم الود . وراح يصانعهم لعلهم يبايعون ليزيد فيستريح مما أهمه . وترضى نفسه . ولما تجمع الناس حوله قال متكلفا الشوق :

ــ أهل المدينة ! ما زلت اطوى الحزن من وعثاء السفر بالحب لطالعتكم حتى انطوى البعيد ولان الخشن . وحق لجار رسول الله ان يتاق اليه .

فرد عليه القوم :

ــ بنفسك ودارك ، ومهاجرك . اما ان لك منهم كاشفاق الحميم البر والحفى .

وانطلق والناس حوله حتى اذا ما كان بالجرف لقيه الحسين ابن على . وعبد الله بن عباس ، فقال معاوية :

ــ مرحبا بابن بنت رسول الله . وابن صنو ابيه .

والتفت الى الناس وقال :

ــ هذان شيخا بنى عبد مناف .

واقبل عليهما بوجهه وحديثه . فرحب وقرب . وجعل يواجه هذا مرة . ويضاحك هــذا اخرى . فيا لمعــاوية ! ترى احسب انه

سيطوى الحسين حفيد الرسول ، وابن عباس عالم النفوس ، م ترى شاء ان يبهر الناس ؟

وفكر معاوية فى أن يذهب الى عائشة فى بيت الرسول ، ولكنه قتل اخاها محمدا فبأى وجه ينطلق الى البيت الذى نكبه فى زهرة من زهراته ٠ انه ليعلم انه سينكا جرح قلب عائشة ، وانه ليعلم انها لن ترتاح للقائه ، ولكن رغبته فى تولية ابنه لشديدة ، وانه ليقتحم الصعاب ، ويواجه المشكلات فى سبيل تحقيق هذه الأمنية العزيزة ، فلن يهدا معاوية ، ولن يرتاح له بال حتى يبايع القوم ليزيد ٠

واقبل معاوية ومعه خلق كثير من أهل الشام حتى اتى عائشة ام المؤمنين ، فاستاذن عليها فاذنت له وحده ، ولم يدخل عليها معه احد وعندها مولاها ذكوان ، فلمـــا وقعت عينـاها عليه أحست انقباضا ، وبان الأسى فى وجهها وقالت :

ـ يا معــاوية ، اكنت تأمن ان اقعد لك رجلا فاقتلك كما قتلت اخى محمد بن ابى بكر ؟

فتكلف معاوية الهدوء ، وقال :

ـ ما كنت لتفعلين ذلك ٠

ـ لم ؟

ـ لأنى فى بيت أمن ٠ بيت رسول الله ٠

فتحدثت عائشة وتدفقت ، فذكرت الرسول ، وابا بكر وعمر ، وحضته على الاقتداء بهم والاتباع لأثرهم ، ثم صمتت ، فلم يجرؤ معاوية على أن يخطب ، وخاف ان لا يبلغ ما بلغت ، فارتجل الحديث ارتجالا ، ثم قال :

ـ انت والله يا أم المؤمنين العالمة بالله وبرسوله ، دللتنا على الحق ، وحضضتنا على حظ أنفسنا ، وانت أهل لأن يطاع أمرك ،

ويسمع قولك ، وان امر يزيد قضاء من القضاء ، وليس للعباد الخيرة من امرهم ، وقد اكد الناس بيعتهم في اعناقهم واعطوا عهودهم ومواثيقهم ٠

فلما سمعت ذلك عائشة علمت انه سيمضي على امره ، فقالت :

ـ اما ما ذكرت من عهود ومواثيق ، فاتق الله في هؤلاء الرهط ، ولا تعجل فيهم ، فلعلهم يصنعون الا ما احببت ٠

ثم قام معاوية ثم خرج واتكأ على يد ذكوان وهو يمشي ويقول :

ـ تالله ان رايت كاليوم قط خطيبا ابلغ من عائشة بعد رسول الله

ثم مضى حتى اتى منزله فارسل الى الحسين بن علي ، فخلا به ، فقال له :

ـ يا بن اخي ، قد استوثق الناس لهذا الامر غير خمسة نفر من قريش ، انت تقودهم يا بن اخي ، فما اربك الى الخلاف ؟

ـ ارسل اليهم ، فان بايعوك كنت رجلا منهم ، والا تكن عجلت على بامر ٠

ـ نعم ٠

فطلب منه معاوية الا يخبر بحديثهما احدا ، ولكن الزبير كان يرقب معاوية ، فلما بعث الى الحسين اقعد له رجلا بالطريق ، فلما خرج الحسين من عند معاوية ، تقدم الرجل منه وقال له :

ـ يقول لك اخوك ابن الزبير ما كان ؟

فلم يتكلم الحسين ، فلم يزل الرجل به حتى استخرج منه شيئا ، فطار الى الزبير يخبره به ٠

وارسل معاوية الى ابن الزبير ، فخلا به فقال له :

ـ قد استوثق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفر من قريش أنت تقودهم ٠

ـ فارسل اليهم ، فان بايعوك كنت رجلا منهم ٠

ثم ارسل بعده الى ابن عمر وقال له :

ـ انى كرهت أن ادع امة محمد بعدى كالضأن ، لا راعى لها ، وقد استوثق الناس لهذا الامر غير خمسة نفر انت تقودهم ، فما اربك الى الخلاف ؟

ـ هل لك فى امر تحقن به الدماء ، وتدرك به حاجتك ؟

ـ وددت ذلك ٠

ـ تبرز سريرك ، ثم اجيئك فابايعك على انى ادخل فيما اجتمعت عليه الأمة ، فوالله لو أن الامة اجتمعت على عبد حبشى لدخلت فيما دخلت فيه الأمة ٠

ـ وتفعل ؟

ـ نعم ٠

وارسل الى عبد الرحمن بن أبى بكر ، فدخل ابن الصديق على قاتل أخيه وفى نفسه شىء ، بل اشياء ، فلما خلا به تجاذبا اطراف حديث ما كان بحديث ود وحب ، بل كان حديث بغض وحقد ، وقال له معاوية فيما قال :

ـ بأى يد أو رجل تقدم على معصيتى ؟

ـ ارجو أن يكون ذلك خيرا لى ٠

ـ والله لقد هممت ان اقتلك ٠

ـ لو فعلت لاتبعك الله فى الدنيا ، ولأدخلك فى الآخرة النار ٠

ومر الليل على معاوية ، وهو يفكر فى هؤلاء النفر الذين كلما تألفهم ازدادوا نفورا ، فلما اصبح الصباح امر بفراش ، فوضع